سنين ومرت

اســـــم العمـــــل	سنين ومرت
النـــــــــــوع	رواية
تـــــــــأليف	سهى زكي
تصـــميم الغـــلاف	عبدالحكيم صالح
إخـــراج داخلـــي	عبدالقادر فايز الهندي
الطباعـــــــــة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــر	الدار للنشر والتوزيع
المـــدير العـــام	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــون	01125800467
البريـد الإلكترونـي	eddar_press@yahoo.com
فـــيس بـــوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع	
التـــرقيم الـــدولي	

الدار
للنشر والتوزيع

2015

سنين ومرت

رواية

سهى زكي

الدار
للنشر والتوزيع
2015

إهـداء

إليكَ وإليّ...

من وحى حياة السيدة "س"

صفحات ممزقة من دفتر قديم

لرسومات الفنجان

لامرأة كشفت الحجاب عن كل حجاب..

سنين ومرت

رواية

سهى زكي

انتبهت السيدة "س " لأهمية أن ترسل إلى كل من عرفته صفحة يومياته التي أحتفظت له بها. لم تبالِ، هل ستكون النتيجة إمتنانًا، لأنها ثبَّتُّ يومًا هامًّا في مخيلتهم، أم ارتكبت جرمًا لتخليد يوم ربما يحب البعض أن ينساه، عمومًا لن تبالي بما سيحدث بعد أن ترسل إليهم هذه اليوميات، وليكن ما يكون.

الحيرة أرهقتها وهى تبحث عن أسماء بديلة لكل الأسماء التي عرفتها، حتى لا يتهموها بأي اتهام أو يحدثون الناس عن مدى استغلالها الكبير لهم في روايتها، ومع تغير الكثير من الأسماء، إلا أنها على يقين أنهم سيعرفون أن الرسالة تخصهم.

لا تحتفل عادة السيدة "س" ببداية العام الجديد ، ترددت فى كتابة شىء مناسب احتست فنجان قهوة يليق بامرأة تريد السهر، جلست لمتابعة أقدام طفولية تلهو فوق غصون أشجار عيد الميلاد، وعروسة مولد متنكرة فى زي باربى تلاعب لها حاجبها الرفيع ، دارت بالريموت على كل القنوات التى تبهجها، ضحكت وبكت ، ثم شعرت بالبرد وتكاسلت عن تدفئة نفسها .

وكالعادة وكما تعرفون ، قلبت السيدة "س" فنجانها وهى تعرف إنها لا تجيد قراءته بل هى تحلم به يوما بيوم ، ولكنها قلبته ونظرت فيه ، رأت عشر سنوات مضت بلا حدث واحد يميزها ،

فقط بقعة ضوء تتوسط الفنجان من الناحية اليمنى للفنجان وسحابات بنية كثيفة ، ونجوم صغيرة فى سمائها ، وكثير من سمك المرجان البرتقالى المبهج ولم تميز صور الأشخاص الكثر الموجودين فى الفنجان ، ولا جنسهم ، وبعد ذلك المسح السريع على فنجانها ، احتضنت وسادتها وهى تستمع لقناة عبد الباسط عبد الصمد حيث يشدو بصوت جميل وساحر وكأنه منوم مغناطيسي يقوم بإخراج روح شريرة رابضة فوق القلب برغبة غير متحققة ، تبتسم ابتسامة لامعة بخيبة الأمل والخوف من العام الجديد ، مطمئنة نفسها بالأمان المنشود ، طالما تتجاهل أرقام قنوات الدماء بالريموت كونترول وكأنها بتجاهلها هذا ستختفى الدماء من الخريطة البشرية.

(من وحى احتفال محبط ببداية عام جديد)

صفحة رقم 5 من دفتر الذاكرة

1985-1975

لم تكن تعرف أبدًا أن الأنوثة ترتبط ارتباطًا شرطيًا، بعروسة لعبة جميلة تحتضنها وهي نائمة، تمارس معها شعور أمومة مبكر.

-1-

في حوش العمارة ذات الأدوار العشرة، تنتظرها "أمل" الفتاة الصعيدية، التي تشبه "س" في هدوئها، لتلعب معها بعروستها القماشية التي صنعتها لها أمها، وأخوها "وحيد" الولد الشقي جدًّا يلعب بحصانه القماشي التى صنعته له عمته الحزينة على وفاة حبيب لها في الصعيد.

لم تحاول "س" مرة واحدة أن تمسك تلك العروسة التي تتبناها أمل، ولم يصِبها فضول لتشاكس "وحيد" في حصانه، كانت تحكي لهما قصصًا من خيالها، عن أم من فضة وأب من ذهب، وأعين صغار من فيروز، يدورون حولهم في السماء، فينزلون للناس لإعطائهم من أشعتهم، تحكي عن أشباح وعفاريت تقابلهم وهى نائمة، تحرضهم على أن يحادثوهم ليلاً مثلما تحادثهم هى الأخرى.

يخاف وحيد وأمل منها ويجريان إلى أمهما يشتكيان لها من "س" وما تحكيه لهما عن العفاريت، فيسمعهما جدهما "هراس" ذلك العجوز الذي كان الأطفال يخافون ملامحه التي عجنتها التجاعيد، الجد "هراس" كان طيبًا جدًّا مع "وحيد" ولكنه كان كلما رأى "أمل" في الشارع ينادي عليها بصوت عنيف:

"أنتِ يا بت الكلب، اطلعي فوق، جاكي خابط في نافخوك، قبر يلم لبنته كلها".

كانت "س" تتعجب من لهجته ولسانه السليط، ومع مرور الوقت اعتادت عليه ، اللعب كان متاحًا بشدة في حوش البيت بكل صوره، من أول اللعب بالعرائس والكبة والبلي وحتى لعبة العريس والعروسة تحت بئر السلم، وكانت "س" أكثرهن بلادة وهدوء ، مِمَّا جعلها تأخذ شكلاً مميزًا بين أولاد الجيران، وكان لحنان أبيها وأمها وعدم قسوتهما أثرًا طيبًا على عقلها، و في نادرة، عاقبها أبوها لأنها أطالت اللعب في الحوش، لملمت "س" أشياءها البسيطة في حقيبة العيد، وقررت الهرب والعيش عند أهل أمل في الدور الأول، قالت لها أمل بكلمات طفولية جميلة بلهجتها الصعيدية المحببة إليَّها:

"أمك هاتتقهر عليكي، وسيدي "هراس" هايشتمك كل شوي وعايضربك زيي، أبوك رجل زين يا "س" ياريته أبوي، دا عايجيبلكم جبنة رومي ولانشون وحاجات مليحة قوي تفطروا بيها، احنا بنفطروا صباع فينو مع الشاي وبس، دا عايدخلك المودرسة وأنا أبوي بيقول البنتة ما تدخلش مدارس".

صعدت دون أن تشعر أمها أنها كانت تنوي الهرب منهم.

-2-

دخلت "س" المدرسة، وبدأت تنسى لعب الحوش وكل الأطفال.

-3-

في زيارة "س" الاستكشافية لبيتها القديم وجدت الجد "هراس" وقد مرض بالزهايمر بعد وفاة حفيده وحيد المدلل محروقاً، إثر لعبه بالكبريت في الشارع وتحول إلى حزين بائس، يجلس تحت شجرة كبيرة أمام البيت صامتاً، نسى تماما ما كان في حياته الماضية، وصارت أمل شابة عجوز، تكلم كائنات تراها وحدها من فوق سطح العمارة، ترثى جدها وأباها وأخاها، وعندما ترى السماء صافية تقرر أن تطير، تضاعفت أحزانها، وازداد إحساسها بالوحدة توحشا، شعرت أنها الإنسانة الوحيدة التي قررت الدنيا أن تخاصمها، تحزن لجدها الذى كان يرعبهم وهم أطفال بمجرد أن يلمحوا عصاه الغليظة على السلم، فعندما يقترب الزهايمر لا يبالى أحد إطلاقا بمن يعرفهم، يقترب الأولاد والجيران منه يسألونه عن حاجته، لا يتذكر ما المفروض أن يحتاجه، ينسي اللازم له ليعيش، ليس حزينا، لا يعرف فرقاً، بين الشعور بالبهجة والشعور بالحزن. لا يعرف الفرق بين الطفولة والشباب والكهولة، لا يميز

مرضه وما يحتاجه من دواء، يسير في طرقات لا يعرفها، لم تمرق عليه يوما، يتوه ثم يعود مصادفة لمكانه، يعرفه الناس ويعرفون إلى أين انطلق عقله، يميزونه أما هو فلا يميز أحداً، لا يعالج الزمن أحاسيس الفقد، ربما يداوى ببساطة أحاسيس مؤلمة عبرت أو يدفع الطيبين للتسامح والأشرار لزيادة شرهم، الزمن قاس في مسألة الفقد، نعمة النسيان، لا تتأتى لمن فقدوا من أحبوا .. يزداد الشعور بفقدهم مع الزمن، فقط كل شخص يحاول أن "يعمل فيها عبيط" ويتناسى ما فقده، أصبحت الحكمة الشهيرة بأن الحزن يبدأ كبيرا ثم ينتهى صغيرا كذبة، فالحقيقة أن الحزن يبدأ كبيرا ولكنه مع الزمن، يتحول لأحد عناصر الحياة اليومية، لا بل يصير هو الموضوع الرئيسي في اليوم، ولكنه يصبح أهم شيء تتحدث عنه إذا ما دفعك أحدهم لتتحدث عن نفسك، قيمة الحزن لا حد لها، تسير مثقلا به، واثقا من أن لا أحدا يوازى قيمتك في الكون، لذلك فالحزانى رائعون ومبدعون إلى حد كبير، من أمن للزمان وانتظر سعادته الدائمة لابد أن تأتيه لطمة كبيرة على خده الناعم الذى وردته الابتسامات بما يكفى، وفقد الحبيب من ضمن الأحزان الكبرى، ستعرف ذلك مع مرور الزمن، لأن وجوده يعنى آلا تحزن أبدا .

كان حبيب "هراس " هو وحيد ذلك الطفل الذى مات محروقا، الولد الذى كان سيخلد أسمه، فهو الحفيد الذكر الوحيد فقد انجب أولاده السبعة فتيات لا عدد لهن ولا حصر ، إلا "وحيد" حفيده من أصغر أبنائه ، لكن لم يمهله القدر للفرح به، ورغم توهان "هراس" إلا أنه يذكر دائما وحيد وحكايات وحيد، وكلما دخل عليه أحد أولاده ناداه باسم "وحيد".

جلست أمام الجد "هراس" الذى كان يخيفها، لم تعد تخافه بالطبع، بل تشعر تجاهه بحنين مرتبط بطفولتها، تسلم عليه فينظر لها بذهول ويهذى، تخبره عن حالها فى دقيقة، وتتركه بعد أن فهمت ما هو عليه، وتصعد لترى كيف أصبح البيت صغيرا مهجورا حزينا منذ رحيلهم عنه، فقد كانت "س" وأسرتها وبالتحديد أمها، هم بهجة هذا البيت الحزين الكئيب.

اقتحمتها ذكريات لم تنجح فى إطلاق سراحها بين طيات كتابها، فإذا بماجد أبن الجيران الذى أحبها، ورفضته عندما كبرت، لأنها استكملت دراستها، والذى أخرجه أبوه الحاج حميدة من المدرسة وجعله يعمل نقاشاً ليساعده فى مصاريف البيت، بكى ماجد يوم تقدم لـ "س" أول عريس أت من الخليج، وكانت لتتم الزيجة لولا فزعها وخوفها، ورفضها بإصرار أن تتزوج وهى لم تتم

عامها الرابع عشر بعد، وأصرت أن تثبت لأبيها وأمها إنها ستصير ناجحة ومشهورة، وأن رفضها للعريس لن يجعلها عانساً تعيسة تجلس فى "أرابيزهم" .

انطلقت "س" فى الحياة الواسعة، قابلت مدعيي الحرية، ومدعيي النبوة المجاذيب والعقلاء المدافعين عن ثبات الحياة، الالتزام بقواعد وأصول العائلات العريقة المندثرة، قابلت كل البشر والحيوانات والحشرات، وتأثرت بما أقنع عقلها وروحها، وتركت ما لم يؤثر، لكنها فى وسط كل هذا لم تقابل حبيباً أحبها مثلما أحبها ذلك الماجد الطيب، ربما وجدت من أحبها أكثر وربما وجدت من حاول استغلالها، لكنها لم تجد أحداً فى نبل ماجد، لو كان أكمل تعليمه وأصبح أفضل منها، هل كان سيغير ذلك فى الأمر شيئاً، ربما؟

الصفحة رقم 10 من دفتر الذاكرة

1985-1995

فأر ضعيف أصطاده القدر بقسوة، فلا هو مات بسم فئران، ولا هو مات من الوحدة".

"يا الله لن تصبح كافرة بالنعمة إذا طلبت من الجميع ألا ينجب أطفالا لهذا الكون الذى لا يستمر إلا بدمائهم عندما يكبرون.

يا الله أنت أرحم الراحمين، فلماذا كل هذا العذاب للعالمين؟

هل خلقت العقل لنختلف إلى حد أن نصبح قتلة ومقتولين؟.

يا الله ذلك العدل النسبي جدا ، كيف يتحقق وقد اختلفت موازينه من فكرة إلى فكرة ومن دين إلى دين؟.

يا الله

بحق جبروتك الذى أجبر الملائكة على الركوع لنا ، لماذا تركت إبليس طليقا؟

وصرحت له بالتجوال ما بين اليسار واليمين؟.

يا الله

هل كل خطأ البشرية الحقيقي أنهم استخدموا العقل لرفض أو قبول دين ؟

هل كل خطأ العقل أنه لا يفرق بين الرخيص والثمين؟

بحق ما كرمتنا وخلقتنا لننعم على هذه الأرض المرعبة، لماذا لا تحقن الدماء؟

ما زلت أصدق أنك هناك وأنك ملهم الخير لنا أجمعين

ولكن ألا يكفى إبليس إلى هذا الحد مراوغة ومحاولة لإثبات محبته لك وأن البشر مجرد طين ؟.

(من وحى الأمل في سماحة ومحبة بين الخلق أجمعين)

-1-

تشدده في الحرص على أبنته قابله تشدد من نوع آخر، هو عدم الاقتراب من زوجته، يستمتع بمشاهدتها وهي نائمة شبه عارية على السرير، تتقلب عليه ، تحاول إغواءه، يتلذذ بمراوغتها وبثها إحساسًا زائفًا بالرغبة، بمجرد اشتعالها، ينظر إليها بسخرية قاسية ويتركها ثم يذهب للنوم في غرفة الأولاد الصغار، المكونة من سرير بدورين وسرير آخر صغير ودولاب أطفال، أول مرة ترى "س" سريرًا بدورين في بيت داليا، كانت تحكي لها عن أبيها الذي يأتي للتلصُّص عليها.

"داليا المحجبة" هكذا كان اسمها، الطفلة الوحيدة في مدرسة غير أزهرية ترتدي غطاء رأس تنام في الدور الثاني من السرير لأنها البنت ولتنام براحتها، فلا تُخدَش، يتسلل أبوها ليلا ليؤمَن عليها وهي نائمة، يكشف غطاءها، يتحسس جسدها الصغير وهو يلهث ، ثم يذهب للوضوء والصلاة، يعود إلى غرفة نومه لينام على فِراشٍ صغيرٍ أعدَّه بجوار السرير كي لا يُضطرَّ إلى النوم بجوار زوجته.

عرفت داليا أهمية جسدها وجمالها قبل الفتيات اللواتي في مثل عمرها، ارتاحت كثيرًا لثناء كل من يرى عينيها الواسعتين

العسليتين، وكانت أول طفلة في المدرسة يُضبط معها خطاب غرامي من أحد تلاميذ الصف الأول الإعدادي.

كان أبو داليا يعمل كمراجع للغة العربية في إحدى شركات النشر الخاصة" ،ويتسلى بجانب عمله بإعطاء دروس خاصة فى مادة اللغة العربية للابتدائية ، وذات مرة عندما كانت "س" تذاكر مع داليا مادة العربي شعرت بحركة مريبة من يده من تحت ترابيزة السفرة وهو يراجع لهم، أنهت "س" الدرس بسرعة واستأذنت، وبوعي فطري، امتنعت عن الذهاب هناك مرة أخرى، ولم يعرف أحد حتى يومنا هذا ما فعله أبو داليا مع "س"، دأب بعد ذلك على مهاجمتها، وتشويه سلوكها أمام داليا وأمها حتى لا تأتى البنت إليهما مرة أخرى، طالب ابنته بالابتعاد عنها، فهى بنت جريئة ترتدي الجينز ، ولا تضع طرحة، وتقرأ قصص المراهقين، كما أنها ليست نظيفة مثلهم، فهم يغسلون الفاكهة والخضروات بالصابون، ويعقمون أياديهم بالديتول قبل استخدام أى شىء، وكان هو يمسك بيده فوطة ليلمع التراب طول الوقت، حتى أنه كان يغسل يديه بالكولونيا ولا يمل من دفع أطفاله لغسل أيديهم طوال الوقت، كانت "س" معجبة بتلك النظافة المبالغ فيها بالنسبة لها، وحاولت تقليدهم فوجدت أن الأمر صعب جدا، فهى لا تستطيع أن تقوم بغسل يديها فى الشارع كما إنها لم تستطع مجاراة أمها فى تنظيف البيت

مثلما يفعل أبو داليا، وكانت تحترم جلوسها أثناء زياراتها لهم ولا تحاول دخول الحمام حتى تغادر البيت، كى لا تتسبب فى عمل ارتباك للنظام والنظافة التي يحرص عليه هذا الرجل، فقد شاهدت كيف أنه دائم العراك مع زوجته لأنها تسمح للغبار بالتسلل عبر الشبابيك، فكانت كل شرفات البيت مغلقة دائما، بيت مظلم ليل نهار.

-2-

تصطحب داليا أمها . من وراء أبيها . فى زياراتها لأم "س"، التى لم يكن لها سيرة فى كل الزيارات، إلا هجر زوجها الدائم فى الفراش، كان لها صوت جميل وهى تغنى ، طلب منها أستاذ الموسيقى أن تغنى أغنية ألف ليلة وليلة فى الحفلة المدرسية، وكادت تنجح فى الغناء دون معرفة أبوها لولا حظها التعس الذى جعل الناظر يقابله ، ومدح فى صوت "داليا"، فعاد للبيت ليبرحها ضربا وهو يقول لها:

"أنت على وش جواز يا بنت الكلب، أنا ها جوزك لأقرب كلب، داخلة على 11 سنة وبتتمرقعى، انتى فاكرة انى هاسيبك تصيعى، أنا أذبحك قبل ماتفكرى تطلعى صوتك"

رفض أن تلتحق بفريق الغناء بالمدرسة كما رفض أيضًا أن تلتحق بأي كلية إعلامية بعد ذلك .

أبدعت داليا فى التعامل مع حجابها الإجباري ، كانت تخرج من البيت بمبالغة فى الحشمة، وبمجرد أن تخرج من الشارع، تتحول لفتاة أخرى، وكان يرافق نظافة ونظام أبو داليا تقريط فى مصاريفه، فى نفس الوقت لم تكن تخلو ثلاجتهم من أى نوع من السلع المعروضة بخصومات فى السوبر ماركت، خرجت للعمل باكرا حتى تهرب من بخل أبيها، وهروبا من ضغطه العصبى والنفسى والجنسى عليها .

-3-

فى إحدى زيارات "س" لصديقة لها تسكن بشارع الهرم، سمعت صوتا يناديها، نظرت خلفها ، لمحت أمرأه منتقبة ، لم تكن متأكدة اذا كانت هى التى تنادى عليها ام لا ولكنها تأكدت عندما وجدتها تقترب منها.

. س.. "س"

هل تعرفيننى

أنا داليا

داليا من ؟

داليا صديقة الطفولة والمدرسة الثانوية

يااااااااااه يا داليا ، لم أعرفك

كيف حالك وحال اهلك

حكت لها داليا ما جرى لأمها من أبيها الذى ظل على هجره لها حتى تزوج من فتاة صغيرة ابتلعت ما تبقى له من أموال العمل فى الدولة العربية الوحيدة التى سافر اليها، وتركته عندما مرض بالكبد. تعجبت "س" من نوع المرض، ولكنها واستها وهى تنظر لنقابها وسألتها: لماذا ؟

. "تزوجت يا "س" من رجل لا يُثار إلا بمشاهدة أفلام البورنو، وهو يشرب البانجو، وأمه سيدة راقية، وغنيه، كانت هى التى تنفق على البيت ، ينتهي من الفيلم والسيجارة ، ثم يتجه إلى الحمام ، يفرغ ما عبأه من إثارة ، ويعود إلي كأنه لا يرانى، ثم ينام، لم يتأزم يومًا من نزولى شبه عارية إلى الشارع، حيث تَغَيَّر شكلى تمامًا بعد هذه الزيجة، وأصبحت أرتدي القصير جدًّا والمفتوح الصدر، والماكياج الزائد، وعندما داعب أنوثتى رجل غريب

متعجبًا من تحرك هذا الجمال وحده دون حماية انزعجت، ووبَّخَت زوجى؛ وقلت له أريدك معى، فردَّ علي بكل برود: "إيه الهبل ده؟! ما اللي يعاكس يعاكس"، ظلت المشكلات بينه وبين أبي الذي أجَّل المساعدة لسنوات، حتى تم الطلاق، وتزوجت بأسرع ما يمكن بائعَ متجول ملتحيًا، ارتديت النقاب إرضاء له وأنجبت ولدًا آخر، ولا أخرج وحدى إلا نادرا، وعانى أبى من تعصبه ، لأنه يغار على من أبي و أخى ويمنع اتصالهم أو زيارتهم لى ، ولا يراعى مرضه ولا عجز أمى، ولا احتياج أولادي لخالهم، تعبت يا "س" من تجربة الحياة فى عقلى، فكأننى فأر ضعيف اصطادته شبكة القدر بقسوة ، فلا هو مات بسم فئران ، ولا هو مات من الوحدة .

ربتت عليها "س"، وأعطت لها رقم تليفونها الجديد، وقالت لها: أنتظر اتصالك وزيارتك فى أى وقت، وتركتها وهى تتعجب لحال الدنيا، فتلك البنت الفاتنة بعينيها العسليتين الواسعتين، وبياضها الأخاذ وعائلتها النظيفة، تكون تلك مسيرتها، كان لها خط جميل، وماهرة فى الرسم والغناء والزينة، تتحول لامرأة بائسة بلا أى طموح .

انقطعت علاقة "س" بداليا، لفترة طويلة لم تعد تسمع عنها شيئًا، ولكنها تعرف أنها ستظهر يوما لتحصل على صفحتها.

الصفحة رقم 30 من دفتر الذاكرة

1995-1985

كل الاحتمالات واردة في هذا الوقت السخيف، وعرفت بعد سنين طويلة، أنه لا فرق بين التى تزوجت بأي وسيلة وبين التى عاشت حياتها بلا زواج، وأنه لا مانع أبدا من أن تبتلع العذارى حبوب منع الحمل، خوفًا من الطريق.

(من وحي الخوف من إعلان الرغبة واستعباد الأطفال)

-1-

أم "رحاب" من أُولَيات الأمهات اللائي رأتهن "س" فى حجاب ، تقريبًا عام 1984، وكانت "أم رحاب" تعمل فى شركة تتبع أحد المصانع الذى أقامها عبد الناصر أسرة متوسطة وبسيطة ، وقتها كانت "س" بدأت تتعلق بالموسيقى و الأغانى ، وكانت تحب أغانى حميد الشاعرى وعلاء عبد الخالق وعمرو دياب، وقراءة الجرائد والمجلات وكتب الأطفال، وحفظ كتب التاريخ الخاصة بالمدرسة.

كانت تذهب إلى رحاب لتذاكر معها، كانت أمها المتدينة جدًّا -كما كانت تراها وقتها- تجبرهم على الصلاة في وقتها، ودفعهم دفعًا بعد الصلاة لتنظيف المطبخ وأرضية الحمام، يخرجان لترتيب البيت كله، ليذاكرا في هدوء، وتجلس أم رحاب في بلكونة الشقة، تقرأ المصحف وتتابع بعينيها كل ما يحدث حولها عند الجيران، ينتهي اليوم وتنتهي ساعات المذاكرة المقررة، تستعد "س" للرحيل.

تطلب أم رحاب أن تأتى إليها "س" المرة القادمة بإيشارب مثل الذي ترتديه رحاب، وكانت ترد عليها "س" بأنها مازالت صغيرة، فعمرها 10 سنوات، وتعتقد أن هذا الحجاب لا معنى له،

كانت تناقشها كأنها كبيرة، تتعجب أم رحاب من مهارة البنت الصغيرة في النقاش، تبهرها قدرتها على إيجاد حجج من لا شيء، رغم أنها وقتها لم تكن قد قرأت إلا جزء "عم"، وقصص الأطفال، وروايات زهور وعبير ورجل المستحيل، إلى آخر الكتب الصغيرة.

كانت تتبهها أم رحاب إلى خطورة هذه القصص الحرام التي تقرأها، وأن ربنا سيحاسبها عليها. كانت امرأة "عايقه" بشكل خاص، تتفنن في كل أنواع الماكياج وموديلات ملابس النوم المثيرة، وكثيرة التشدق بأهمية التزين في البيت، وكانت بخيلة جدًّا ، تخبئ من زوجها الطعام والسكر والشاي وكل شيء، تكرهه بشدة؛ رجل يأتي يومين كل 15 يومًا تقريبًا. تسمعها طوال الوقت تتحدث عن بخله وتقشفه، لدرجة جعلت أولادها الثلاثة يكرهونه، لكن "س" لم تكن تكره الرجل في المرات القليلة التي رأته فيها، وكانت تقارن بينه وبين أبو "داليا" وتراه طيبا رغم ضخامة جسده وملامحه الصعيدية الصارخة، طيبته واضحه عليه.

الغريب أن رائحة الجنس الفوَّاحة منها كانت تعبئ البيت بمجرد حضور زوجها، لا تنتظر ليغير ملابسه، تلك الرائحة التى ميزتها "س" عندما كبرت كما عرفت تماما رائحة الموت ، كان بمجرد دخوله من الباب ، تضغط على عضوه من فوق البنطلون،

تسحبه منه إلى غرفة النوم، أمام أربعة أطفال، "س" ورحاب وولديها، تلقي بحقيبته في عرض الصالة، قائلة لرحاب بصوت عالٍ: "شغلي الغسالة واغسلي حاجة أبوكِ"، وعندما تنتهي منه تخرج لتستحم، تنادي ابنتها مرة أخرى لتحضر لها ملابسها من الدولاب، تتوضأ وتخرج، تذهب إلى دروس الدين في الجامع طوال الوقت، تترك البيت خرباً، معتمدة على رحاب وأخويها في تنظيفه، وفي طبخ الطعام، تستغل "س" لاستفزاز رحاب في طبخ الطعام، فتقول لها أمامها "رحاب شاطرة قوي وبتعمل كل حاجة لوحدها".

لم تكن تفهم "س" وقتها لماذا ترى رحاب دائماً متذمرة وعصبية وإحساسها تجاه العالم مشوه، وتكره كل الناس، وتطمع فى أي شىء، وكثير من المرات عندما كانت تذهب "س" لزيارتها تستقبلها بطريقة سيئة، عرفت بعدها سبب هذا الاستقبال، مع مرور الوقت عرفت أن رحاب تحبها جدًّا، وأن أمها هي سبب نفورها منها، نتيجة مقارنتها المستمرة بها وبنظافتها وشطارتها. فجأة مات أبو رحاب في حادثة عمل وورثت أمها إرثًا معقولاً، أمَّن لها مستقبلها هي وأولادها، تزوجت بعد عدتها مباشرة شيخ الجامع الذي كانت تحبه وتصطحب معها رحاب و"س" لحضور دروس الدين، عاش زوجها الشيخ معهم على أنه ذكر فقط، يأتي لينام معها ثم يرحل فورًا.

فشل الولدان، ونجحت في تزويج رحاب من أربعة أزواج، الزوج الأول قامت باستقطابه بمهارة، مدرب سباحة فى نادى صغير، خطف عين الأم، وكان يحلو لها أن تجلس أمامه في البيت بقميص النوم، في حين أن رحاب تقوم بدور الخادمة، إلى أن فاض الكيل بالزوج من الأم التي استعبدته هو وزوجته استعبادًا إنسانيًا وجنسيًّا، قرر أن ينجو بنفسه من كمين الأم الدائم له، حتى طلَّق "رحاب" وترك لها ولدًا وبنتًا.

ثم بدأت مع رحاب رحلة الزواج بعد العدة فورًا، دون أي مكاسب مادية إلا العصمة من الفاحشة، تلك الجملة التي ترددها الأم دائمًا، وبهذه الحكاية التي حكتها "رحاب" بعدما قابلت "س" وفى يدها ثلاث لأطفال من ثلاث رجال مختلفين، ولم تكن "س" قد تزوجت بعد، احتضنتها بقوة، وهى تخبرها "بالله عليكي يا "س" إن أنجبتي بنتا أحبيها أكثر منك، وارحميها من أحلامك فيها".

عرفت "س" أن كل الاحتمالات واردة في هذا الوقت السخيف، وعرفت بعد سنين طويلة، أنه لا فرق بين التي تزوجت بأي وسيلة وبين التي عاشت حياتها بلا زواج، وأنه لا مانع أبداً من أن تبتلع العذارى حبوب منع الحمل، خوفًا من الطريق، فربما تلتقط حيوانًا منويًّا غير مقصود، وهي نائمة مع أحدهم بغشائها

الذي تحافظ عليه من أجل الزواج، وبعدما تنام معه، تخرج بكل ملابسها المحتشمة، ونظرتها الجامدة في اتجاه كل الطرق المقدسة، وتلتصق بالمتدينات عن حق، لتأخذ منهن رحيق عفتهن.

أما عز أخو رحاب من الشيخ الذى تزوجته أمها عرفى لشهور قليلة ، ذلك الولد الأسمر الطويل ذو الشعر الغزير، حاولت أم رحاب أن تصنع منه عبدًا مطيعًا لها، لمجرد أنها أمه، بأفكارها عن ضرورة أن يكون رجلاً مع كل النساء إلا أمه. كل البنات اللائي أحبهن تزوجن، وظل جالسًا في سعي دؤوب لطرد كلاب روحه من الصالة، فرد أنفه لينام عليه المتطفلون قليلاً، لكنه عاد وتنبه لصوت أمه تسأله:

– لماذا يا ولدي لا تفقأ عين الحزن؟ لماذا تنتحر بالفكر؟

أجابها بنظرة مرتعشة مزجت الغضب بالحب بالخوف:

– أنتِ آخر من يتكلم؛ أنتِ صانعتي؛ اخرسي تمامًا، إياكِ أن تأتي إلى البيت مرة أخرى، يكفي أنكِ فضحتِنا بأعمالك السوداء. تأهبت للرحيل، تسببت دموعها في لسعات على سجاد الصالة العجمي، ورقعت آهاتها حائط البيت.

– نعم أنا السبب، لكن لا تلُمني، اذهب لتسأل ذلك الرجل الذي بنت اليمامات البكر أعشاشها تحت إبطه.. انتهك الزمن حرمة أيامي، تلك الأيام التي كشفت ستر عورتي للمارة من المناضلين، ليضعوا بصماتهم على جسدى المنهك بفعل السير الطويل على مدى خمسين عامًا من الألم. للسعادة موعد محدد وقصير، والألم كذلك، لكن بعد سن الخمسين، تشعر به أطول... أطول... مرارة التجربة تصبح حقيقة في جوفك، لقد صبرت مع زوجي الذى لم يحتمل تأجج شهوتى ، ثم مع والدك الذى استخدمنى لشهور قليلة وتركك لى ، وبعد وفاته قررت جماعته أن تحتضننى و أباحت استخدام روحى وجسدى فى مغامراتهم المستمرة ، و وللأسف لم يفلحوا بنضالهم حتى الأن وعرفت بعد كل هذا العمر ، أن لى حق فى الحياة وكفانى كبت رغباتى التى احتضرت مرارا وتكرارا منذ تزوجت فى الثانية عشر ، لم اعرف معنى الزواج الا بعد موت الرجل ، لم أدرك قيمة جسدى إلا بعد ما تحررت وتيقنت اننى املكه ولم يعد ملكا لأحد ، فقبل زواجى كان ملكا لأبى وبعده اصبح ملكا لمن يتزوجنى ، فلا تلمنى على تحررى المفاجىء بالنسبة لك إنما هى رغبة لم تمت، وقررت اطلاقها قبل أن أمت .

الصفحة المائة من دفتر الذاكرة

2005 – 2000

تترك جسدها كل يوم ملقي علي السرير .. يحتضن الوسائد الخالية ساخرا منها وهو يراها تلبس روحها رجلا غبيا وعنيدا ومسئولا .. اعتادت سخريته اليومية منها ولم تساله يوما ..لماذا تضحك ؟!

لكن مؤخرا راح ذلك الجسد النائم الساخر يلاحقها عند الباب خذيني معك خذيني معك حتي كاد يبكي فنظرت له نظرة شماته وارتدت رجولتها واغلقت الباب خلفها.

(من وحى الازدواجية)

-3-

تقف "س" تحت الماء المنساب على جسدها البض ، وهى تنفض عن عقلها حكاية ام رحاب المؤذية ، والتى لا تعرف كيف نجت من هذا التشوه الذى كانت تشاهده كلما ذهبت لهم وهى صغيرة ، رغم أنشغالها بالنظر من البلكونة الخاصة بهم كلما ذهبت لزيارتهم للفتى الصغير الوسيم الذى كان يغازلها من الشباك .

بعد كوم من التراب المر ينزل الماء ملونًا بشعرها الأحمر، تسخر من مشاعر الرومانسية التي أحيانًا ما تنتاب السيدات العوانس العائشات في حضن رجال فارغين من الرجولة الحقيقية، فى حين يحللن لأنفسهن عشقًا خياليًا أو واقعيًا كي يتحملن عيشتهن السوداء، وربما يغطين أجسادهن الساخنة برغبة نارية بخيمة سوداء تلمع على وجهوهن من أثر دمع لا يتوقف خلف غطاء الوجه الخانق، ثم يتفاخرن بأنهن سيدات مصونات، لا يضعفن أمام الشيطان المجنون، ولكنهن يفكرن دائمًا في الخلاص مِمَّا يعانونه، ثم يحاكمن السيدات السافرات السائرات في الشارع متأبطات أذرع رجال لا يزالون في مرحلة الفحولة، يحسدوهن على سفورهن، ويتحسرن على بختهن المائل مع رجال يقهرهن باسم الدين، وهن راضيات، ويقنعن الآخرين بأن رجالهن غيورون

ويخفن عليها من الهواء، ويتقي الله فيها، ولا يقبلوا أن تسير نساؤهن مكشوفات الوجه الذي راحت من عليه كل معالم الأنوثة والحياة، كذلك تفرض السيدات الواثقات من أنفسهن شخصياتهم على من يحاول أن يتحكم فيهن دون وجه حق، فيجعلن الرجل كالحذاء مُلقًى تحت أقدامهن ليحميهما من لسعات الشارع.

ترتبك "س" من متابعة المشهدين المختلفين، تتساءل كيف يعيش الرجل والمرأة تحت سقف واحد فقط دون أن يكون لهما جسداً واحداً أو روحاً واحدة، وتعتقد أن النظم السياسية تتآمر جميعها على تدمير أطفالهما الذين تحملا عيشتهما معًا من أجلهم. لماذا تُجبَر امرأة على تحمل هذه العيشة؟ ولماذا يقبل رجل أن يعيش مهانًا دائمًا ومسلوب الإرادة والرجولة فقط ليحافظ على الأولاد؟

-4-

تجرى "س" في اتجاهات الريح، تنزع عن السواد ستائره القطيفة، ليتحلى الحلم بالشيوعية الثورية، ويتحرر الرجال من خوازيق الفقر المزروعة على طريق الحرية في بلد لا يعرف غير الدعارة الشرعية. تخبر الجميع عن حل سهل لكل الأشياء الصعبة، فلا مشكلة أبدًا، "الحياة أبسط من كدا"، نقتلع الشجر

طالما هناك جفاف، ونكسر وسط الناس المطحونين أصلاً طالما لا نستطيع توفير المقاعد لهم، وربما من الأسهل أن نحفر الكثير من البقع الترابية ما دامت لا توجَد مساكن، وأخيرًا من الأبسط جدًّا أن نسير مغمضي الأعين، ومنتفخي البطون، وحليقي الرؤوس، حتى إذا ما قابلنا عفريتًا خاف منا، وقال هذا ابن آدم، ثم يستعيذ بالله من الإنسان الرجيم.

وفوق كل القبور المعروف مكانها والمجهول، تضيء شموعًا من نار ونور، لمن ذهبوا دون اختيار، وبقى آخرون، أيضًا دون اختيار، المسألة أبسط من الحزن، فالحزن رغم عظمته تذيبه الأيام، كما تذوب الشمعة تمامًا بعد ليلة رومانسية تنتهي بدمع لا يموت أبدًا.

صفحة 344 من دفتر الذاكرة

2000-1995

طاب لها أن تتعلم أن سيجارة الحشيش غذاء الحزن وصانعة الدموع

اللي يخرج من حياتي ..

ياخد الذكري اللي ليه..

أصلي لما هاقول نسيته..

هانسي حتي شكله إيه..

(الشاعر طارق زرمبة)

-1-

رافقت "س" أصدقاءها لزيارة كاتب شاب لا يخرج من بيته، هز إحساسها مشاهدته يجلس متأملاً متعبدًا كأنه راهب في معبده يستمع لمنير بعشق، ويتقمصه حتى تشعر وهو يتحدث أو يتحرك كأنه هو، بنحافته وتقليده لتسريحة شعره، انجذبت ، أربكتها عيناه التي أصرت بشدة أن تلصقها بجواره.

يحب أغنية نوال وفضل شاكر "أحاول أخفي إحساسي لكني بالعشق مفضوح".. وأغاني "حميد الشاعري" الثمانينية "بجيلك من ورا الأحزان ولسه فاكر العنوان"، وحدوتة منير المصرية، ومع الأغاني المشتركة بينهما وعلى عبق دخان الحشيش الذي يتنفسه تقريبًا بدل الهواء، لمعت عيناه الناعسة الواهنة من طول التأمل، احتضنها بعينيه، استنشق بروحه بعضًا من روحها، تماهيا حتى شعرا بتوحدهما في جسد واحد، كان حنونًا بدرجة تكفيها، وكانت ليلة كالحلم الطيفي الذي يراود النائم مع أول ظهور لشروق الشمس.

كانت ليلة الحب الحقيقية التي عاشتها، فهؤلاء الآخرون الذين أخذوا بعضًا من روحها لم يرضوا لها أن تعيش بكل روحها وأن يتقاسمها معها حبيب واحد، لم يطِب لهم أن يروا بريق جسدها

يتألق بينهم وهم موتى، كرهوا لها الاستمتاع بالحبيب الوحيد مثلها، أرادوا بقاءها وحيدة بلهاء تشاطرهم بعضًا من روحها. فكان لها من تحذيراتهم الكثير، خافت منه، هربت ولم ترغب في لقائه مرة أخرى، وقاموا معه بنفس المهمة، رسموا له تلك الصورة الشهيرة لفتاة تحتضن رجلاً في أول مرة تراه، من ستكون سوى "عاهرة"، ورغم علمها بتلك المجهودات التي يقدمها الوسطاء، وتأكدها من عقلية المستثقفين الجدد الذين يرددون شعارات عن الحرية الجنسية والعقائدية، عرفت أن علاقة حقيقية مع أحدهم تكفي لتأكيد كيف يفكر رجال يبدو عليهم وعلى كتاباتهم الجريئة وشعاراتهم البراقة الحرية، إلا أنهم يجرمون أي إنسان آخر لا يتفق مع أفكارهم ومعتقداتهم.

تجاهلت "س" اتصالاته المتكررة بها، واجتهدت في إبعاد صورة الحلم من مخيلتها، وحاولت استعادته بعدما تأكدت من الموت المحقق لكل الأرواح الفانية التي عذبتها بعد ذلك، وبدوره لم يحاول أن يرى سوى صورة أخرى لتلك البنت التي رافقته ليلة واحدة، سحبت فيها بعضًا من روحه ورحلت دون أن تخبره عن الاختفاء بعدما توحدا.

تركته وكلها اشتياق إلى تكرار ذلك الحضن الطيب بينهما، حضن لم يحاول فيه خلع ملابسه، ولم يقُم بتعريتها، حضنه الحنون بآهة مكتومة هو الذي أرعبها، فحضن كهذا بالتأكيد له حبيبات كثيرات، تركته وهى على علم بأنها ستترك جرحًا زمنيًّا في عقله الرافض لاعتراف سيخنقه، بأنها حبيبته الوحيدة، ويكفي أنها لم تسعَ إلى مضايقته بأي وسيلة بعد ذلك.

عادت بشقاوة المراهقات الخجولات اللاتي خرجن لتوهن من خلف حجاب، تسير في الشوارع، تتلمس طريقًا جديدًا، بحثًا عن آفاق أكثر رحابة وانطلاقًا لعقلها الذي أرهقه التفكير والتأمل، تتعثر قدمها الصغيرة ببقايا جثث لم يصِبها العفن بعد، تغوص قدمها في لحمهم الطري الذي لم يتيبس بفعل الرطوبة، لم تكن تعرف وقتها أن تلك البقايا ستتجدد خلاياها كما في أفلام الرعب الأمريكية، انتظرت تلك البقايا طويلاً لتعبر أي روح عليهم كي يتلبسوها أو تتلبسهم، لم تنزعج بقيامتهم الأولى، لم تندهش، كانت سعيدة جدًّا لأنها سبب في ارتداد أرواحهم إلى أجسادهم، صدقت أن لهم حياة، ولأنها ساذجة فرحت باحتفائهم بها، تهللت لأنهم وضعوا تاجًا مرصعًا بآلهة الحب الصغيرة على رأسها، أخذوا بعضًا من روحها وتناوبوا التحرك بها، كانوا سعداء وهى سعيدة

لسعادتهم، حتى انتهت لليلة رائعة قبل أن يتملكها إحساس بالدوار جراء فَقْد بعض روح.

-2-

حلف حبيبها ذات يوم، أنه لن يتركها، إلا كالمجاذيب الهائمين مع أشباح الموتى، وأن جنونها أهون عليه من أن تتركه يومًا، لكنه تركها، ولم تصِب بلعنته، وأصبح بديل الجنون هو عقل يخيفها ويخيف من يصدق أنه لم يتركها، أصبح الحب رفاهية إذا ما داهمها همه، تصير رغبتها مطموسة في طين الألم، تبحث عن طريق إلى طاقة تتصل بأعصابها، لعنة تصيبها في مقتل إذا ما قررت أن تحل عقدة الزمن، صارت ترقد دائمًا على رفات المنسحقين الذين ذهبوا بإرادتهم إلى الانزواء متخفين في الأكفان، فهى لا تحترس ولا تخَف ولا تحاول أن تنبش في أسباب رحيلهم، هم فقط اختاروا الانزواء، وعليها ان تختار شيئًا جديدًا؟

تقف دائما في معركة الأرجوحة المعلقة بين الأهلة والصلبان، معلقة لحين اكتشاف الحقيقة، هل لها دور حقيقي في الحياة، أم ستظل في انتظار وحي لا يأتي من عالم آخر لا يشعر بها؟

تطاردها دائمًا اختلاجات القلب على حالة عشق، تتذكر تلك الحالة الجميلة، عندما كانت تقفز فجأة إلى عقلها كل أغاني

العشق، وتنسى كل التفاصيل المرهِقة، فتسقِط من حساباتها عذابات المآسي الكبرى، فتضطر إلى كتابتها ضمن مذكراتها، فتكتب (المآسي الكبرى) كي تريح ضميرها، ووقتما ترتسم على وجهها ابتسامة دائمة، وتلمع وجنتها وترفض الانصياع إلى رغباتها المؤذية لها،

وبعد أكثر من عشرين عاما، تركت فيها ماضياً لعلاقات بشرية حفرت داخلها علامات طرق طويلة، ستذهب إليها ولن تعود لهم أبداً، تتحرك "س" بثقل أيامها وتجربتها، تبحث عن حبيب، تلاعبها مشاعرها هنا وهناك، يوهمها أحدهم بأنها حبيبة أيامه وعمره، ثم يتركها تتقلب على جمر وسادتها التى ترفض بشدة أن ينام عليها شخص حزين أو مريض أو بخيل، فلن تستجدى العشق أبدا مهما اشتاقت.

تؤمن به الآن بأن الذي يحدث قد حدث قبلاً، ناس يصدقونك ويحبونك وآخرون يتمنون اختفاءك، أو تتشغل بمصيبة تأخذك، البشر المادَّة التي لم تخلق من عدم، حسب قناعتها، إذ أنها تصدق في وجود الله لكنه الله غير الذي غرفته عند داليا ورحاب وعمها هراس وأبو وحيد، تعرف أن له كل الفضل فيما يدور حولها ومعها وداخلها، وإيمانًا منها بأنه الوحيد القادر على ذلك، فهى

تحبه كل يوم، فهو الذي يجمعها بكل جميل، من جعلها ترى خريطة طريقها وطرق آخرين تعرفهم، ولا تعرفهم، هى المجذوبة بعشقه، ولا تقبل غير رسائله لتدرك كل يوم جديد، تعلمت بعد امتصاصها لكل الأرواح التي قابلتها، أن التسامح هو طاقة الحب، ودونه تصبح كالقنفذ، تلملم الحشرات في الطريق للغذاء، اعتادت "س" أن تسامح كل من آذاها يومًا، لأنه كان يؤدي دوره في حياتها، وتتمنى أن يسامحها كل من شعر أنها آذته، لأنها أيضا كانت تقوم بمهمتها.

-4-

تحب "س" الذي يغدقها بمحبة لا تقوى على احتمالها، تحبه حتى وهى تثمل، أو تدخن تلك السيجارة المحشوة، الذي عرفها عليها ذلك الطيف العابر في الليلة إياها، نفسه الطيف الذي سكن كل مسامها إلى الآن، علمها كيف تستمع للأغنيات القديمة النادرة، مردداً عليها أسماء صانعيها، تراقب رسومات الدخان في الهواء، يتنافسان على استعراض مهاراتهم الخيالية في تصور أشكال الدخان، التي شكلت حكايات لم تحكها الجدات، ولم يروِها الكُتَّاب المجاذيب، تصنع الحشيشة خدرًا خفيفًا في خلايا الروح، تحلق بالعقل في فضاء أوسع من المكان الحاضر، سيجارة

حشيش تقدم متعة التيه والتحليق في سماء الفراغ، منذ عبرت "س" الثلاثين، وقد أدركت مم يصنع الحشيش، تُصنع سيجارة الحشيش من الأشياء التي تحلل الدماغ، من حزن اعتُصِر من المقابر الشهيرة، تُصنع من ذكريات كل الوحيدين في العالم، كما تضاف إليها أماني يصعب تحقيقها وأحلام مستحيل استمرارها لما بعد اليقظة.

هذا ما تفعله سيجارة الحشيش، هدوء غير مقصود، ودمع يتلألأ إلى الأبد، ورغبة قوية في الصراخ مكتومة، كما تقدم على صينية من صفيح خام، غوان وغلماناً ورجالاً لا يشعرون أنهم مشويون بالفعل وجاهزون للمضغ.

كانت قبل اكتشاف سيجارة الحشيش تعرف أن الإيحاء هو الدافع الحقيقي إلى تناولها، بعد تكرار الفعلة المجرمة، عرفت أنه لا معنى للإيحاء في حضرة ذلك الصوفي، ربما يوحى لها بأنها فراشة أو كلب أو حتى طوبة لا تخرج من بين قضبان البيوت المؤبدة.

هناك ناس ينعمون بخرافاتهم، وللشعوذة والدجل ناس، هى منهم، وللحزن الدائم في قلوب الشباب الذي تخطى الثلاثين سببًا كبيرًا غير سيجارة الحشيش.

تستطيع مع هذا العشب الطيب، أن ترى حفريات الحزن على ملامح من حولها، وينمو مع أحلامهم عشب شيطاني عظيم، يقرر ببراعة أن ينزع الملابس الداخلية للبشر، ليمشوا على حائط الزمن الواقف منذ سنين، لم تصِبه عوامل تعرية، واقف كأنه الموت يدفع الجميع إلى الركض نحوه.

فقط طاب لها أن تتعلم أن سيجارة الحشيش غذاء الحزن وصانعة الدموع.

الصفحة رقم 222 من دفتر الذاكرة

2000 – 2014

"يضاجعك الحزن والجنون مضاجعة أبدية"، هكذا كانت نبوءة "س" الأولى لصفية، أفكارها تأخذها دائمًا إلى البحث عن شيء لا تعرفه في أماكن غريبة.

(من وحي جنون الفنون)

-1-

ذات مرة قرأت "س" إعلانًا عن عرض مسرحي للكاتب الكبير "آرثر ميللر" ذلك الذى كانت شهرته بالنسبة لها أنه تزوج "مارلين مونرو" وكان زواجا ملهما للعشاق ، وأحيا أملا فى قلوب العجائز والفاتنات المتطلعات، كانت ترغب بشدة أن ترى مسرحية حقيقية للكاتب الذي قرأت عنه وهى صغيرة، عرفت أن المكان الذي ستعرض به اسمه "الهناجر"؛ سألت أبيها عنه فأخبرها بأنه مسرح يتبع دار الأوبرا، وسيحاول أن يوفر لها تذكرة.

علاقة أبيها بالمسرح قوية، ولصغر سنها اعتقد أنها تهتم بما هو أكبر منها، وتجاهل طلبها بكلمة "حاضر"، وعندما عادت إلى الإعلان مرة أخرى، وجدت مكتوبًا عليه "مجانًا"، فاعتمدت على نفسها واتجهت إلى دار الأوبرا وحدها ، كانت وقتها في سن السابعة عشرة، دخلت المكان، انبهرت بشكل الممثلين الشباب والمخرجين وصخب البروفات قبل العرض، وقفت في ذهول الإعجاب بحالة الفن، وحدها تمامًا تنتظر بدء العرض.

لاحظت "س" أن هناك فتاة تكبرها بعشرة أعوام تقريباً تحاول أن تقترب منها، بعد قليل نظرت لها بثبات في عينها وسألتها: أنتِ بتعرفي تشوفي الفنجان؟

لا تعرف "س" لماذا أجابتها بنعم، طلبت منها الجلوس وطلبت لنفسها فنجانًا من القهوة، وعندما أنهته طلبت منها قراءته، قرأته لها، انبهرت بها، ونادت أصدقاءها من الفنانين وقالت لهم: هنا بنت عبقرية تقرأ جيدًا، تعجبت من أن هناك فنانين يهتمون بهذه الأمور، حتى بداية العرض كانت قد قرأت أكثر من فنجان لأكثر من فنان أصبحوا نجومًا كبارًا الآن، لازمت "س" تلك الفتاة طوال الوقت، يوميًّا تقابلها، حتى عرَّفَتها مقهى الحرية.

تدخن صفية بشراهة كما أنها غريبة الأطوار.

سألتها "س": كيف عرفت أنني أقرأ الفنجان؟

قالت لها: عينك يبدو عليها ذلك

روحك ممسوسة بالجن الطيب، ضحكت وقالت لها: أنها لا تؤمن بهذه الخرافات، وأنها على يقين بأنه لو كان هناك جن، فهو في حاله والإنس في حاله ولا اختلاط بينهما، هل سمعتِ يومًا عن سمكة دخلت في الجن أو عن نجمة سقطت على رأس إنسان ليصير أبو لمعة؟!

ضحكت صفية ضحكة ضيقت عينيها الضيقتين أصلاً، ثم أخبرتها سرها ، وهو أنها ملبوسة من جن كافر، يريد منها أن

تتحرر من عذريتها وهي لا تقوى على مقاومته، وأنها تأتي إلى مقهى "الحرية" لتشرب حتى التوهان وتأخذ معها عابر سبيل ليخترقها وتخلص من عذاب الشق المغلق، ورغم حرصها اليومي على ذلك، فإنها عندما تسكر تقاوم، ورغم الإغواء الشديد المتجلي من جسدها وعينيها وانجذاب الرجال إليها، فإنها تهرب جريًا في الشارع كالمجاذيب. سألتها إن كان بإمكانها تخليصها من عفريت الرغبة المختبئ في أحشائها، قالت لها ارحميني وارحمي نفسك واتركيني لحالي، أنا لا أصدق بالمسّ.

اكتسبَت صفية تعاطف الجميع، فهي بلا مأوًى ولا سند أو منقذ، اجتمع أصدقاؤها الطيبون في محاولة لإيجاد حل أمثل لمشكلتها. فتاة كهذه، في وجهها مسحة جمال قابلة للتألق، نحيفة جدًّا وطويلة، ولها شعر طويل يسهم في الإغراء وقت استغلاله، كيف سيمنع أصدقاؤها الطيبون فتيل القنبلة من الاشتعال، زاد همهم وحزنهم عليها عندما بدأت باختلاس النظرات إلى الشباب العابرين، وأخذ السجائر الفرط من الرجال، لم تفكر أن تجلس إلى الطيبين المهمومين بها، تركتهم يفكرون لها، وذهبت إلى الإسكندرية مع بعض الشباب في محاولة للبحث عمن يخلصها من حزنها.

عادت رافضة مساعداتهم الفقيرة، وقبلت مساعدة أيادٍ تقبل على الاحتضان. تلك البراءة والطفولة في عينها، كيف تجاهلتها ولم تكترث لسيرها وراء مشاعر طفولية مخيفة؟! فالأطفال يعشقون إيذاء أنفسهم... لذلك يراقبهم الكبار بشدة.

-2-

يراقبون صفية الفنانة الشابة، التى سافرت حول العالم لدراسة التمثيل "clown" كيف ستقوم تلك الهاربة من بلدتها الريفية بدورها على المسرح؟

وقتما هربت "صفية" تركت خلفها بعض الكلمات المبعثرة في أرجاء المكان، تذكرهم بمن كانت هنا، فمن يذهب سيجد عمرًا مضى بأيامه محفورًا على جدار المكان، هجرته ولم يكن هجر الغدر، فالغدر لا تبقى معه ذكرى، تركت خلفها قصاصات هنا وهناك توضح لمن لا يعرف من كانت ولماذا هجرت، فلها مع كل جمع حكاية مؤثرة عن هروبها.

عندما جاءت صفية إلى ذلك المقهى بحثًا عن الحرية، كان كل ما يشغلها أن تنسى الماضي المؤلم الذي عاشته، تنسى الطوب اللبن المبني به بيتها وجلباب أمها المتسخ من جلوسها

أمام فرن الخبيز، ومشهد إخوتها الصغار المهملين ولعبهم في فناء الدار.

أطلقت صفية شعرها الأسود بغجرية وعلَّت صوتها بميوعة الإغواء، لا تلقي باللوم على طريق خالٍ من الإشارات، ولا على سيارة لا تجيد الإلتزام بالإيحاءات، وتلقي باللوم على خطواتها التي لا تعرف كيف تدير موتور الأقدام التعبة ولا تجيد إصلاحه، ظلت تقضي أيامها ولياليها على غير رغبة في هذا الطريق، ولم تقصد أن تهين استقرارها الشفاف.

أصبحت مشاعًا متاحًا، لكل من يريد أن يجرب جسد وعقل فتاة الريف الحرة. صارت أكثر جرأة، وفي هذه الملابس العارية التي ترتديها في الصيف في أي مكان إعلان صريح عن حريتها، لتنادي كل مستثقف خبير ليقترب منها، ويترك ختمًا خاصًا به على صك حريتها المزعوم، ستكتشف بعد سنوات قليلة أنها خُدِعَت كثيرًا بهذا الوهم، ستعاود الحديث عن الريف وأهميته، وعن حنان أمها المفقود، وعن كل الأشياء التي ستحاول أن تجعلها تبدو كالفلكلور الخاص ببيتها هي فقط.

ليتها كانت كبيرة بالقدر المنقذ لها من مصير اعتقالها بمنزل ارتدى فجأة جلبابًا متشددًا، يرفض تمثيلها المسرحي، بعدما وافق

يومًا على أن تسافر إلى باريس في ورشة تمثيل باهرة، خرجت منها "clown" محترف، وبمجرد عودتها، استقبلها زملاؤها المسرحيون بحفاوة آملين فيها خيرًا لتغير صورة المهرج عند الناس بما تعلمته هناك، ولكنها فوجئت بتغير أهلها، فقد حبسوها، ولكن المخرج العبقري الذي أراد بشدة أن تعمل معه، قرر أن يتزوجها لتؤدي الدور الذي يريدها فيه، وذهب لخطبتها، استقبله الأهل في صالون ليس مذهبًا بالطبع.

رفض أهله تلك العائلة التي يبدو عليها الخبل الرسمي، فقد دخلت هي مرتدية ملابس تشبه الساري الهندي، وجلس أخوها وأبوها متربصين لأهل المخرج الشاب، يسألان عن أشياء غريبة، وأمها أخذت تتحدث عن عفريت المسرح الذي ركب البنت وأنها تنوي أن تخرجه منها عن قريب.

خرج المخرج بعائلته جريًا على السلالم ولم يعودوا أبدًا، بعدها تحولت لأداء دور المهرج على أرض الواقع، فمرة تتزوج وتنتقب، وأخرى تهرب للزواج بمسيحي، تعود فيحبسونها داخل غرفة فوق سطح البيت، تهرب مرة أخرى، تعود إلى مقهى آخر ليستغلونها قليلاً، تعود بمزاجها إلى البيت، يحبسونها مرة أخرى، تتمرد، تقرر حلق رأسها والنزول من البيت وهي ترتدي الجينز والبلوزة

المفتوحة، يأخذونها بهدوء إلى مستشفى العباسية، تقضي أيامها هناك بهدوء، يعتقدون أنها شفيت، كما اعتقدوا تمامًا أنها مريضة، يحبسونها للمرة العشرين، تهرب للمرة الثلاثين، وما زالت وسط البلد تتحدث كلما رأتها عن كيف أن هذه البنت المجنونة كانت ستصبح ممثلة مسرحية كبيرة، متخصصة في أداء دور الـ"clown" ببراعة.

ورغم اختفائها إلا أن "س" تعرف أن لصفية ظهور جديد حتمى، لأن صفحة نهاية الحكاية مازالت معها وعليها ان تستعيدها، فقد قرأت "س" فنجانا كانت قد تركته مقلوبا قبل اختفائها مباشرة، وكتبت لها تفاصيل الفنجان وهاهى تنتظر ظهورها حتى تخبرها، أن الطالع هذه المرة لن يكون بقسوة كل المرات السابقة، وانها اخيرا ستنهى مآساتها.

الصفحة 505 من دفتر الذاكرة

2005

لم تجيد السيدة "س" التعايش مع شريك اناني ومستبد وله مزاج خاص كذلك لم تعتاد التخلي عن مسئوليتها تجاه من تعيش معهم لذلك تعاني بشدة السيدة "س" في اتخاذ احد قرارين اما ان تتمتع بحريتها او تبدا في ان تحافظ علي حرية الشريك المستمدة من مسئوليتها وتتخلي تماما عن تلك الاحلام البلهاء في ايجاد شريك تعيش معه حريته ومسئوليته ويعيش معها حريتها ومسئوليتها .. ذلك الحلم الذي تاكد فشل تحقيقه بنسبة 99% مع صديقاتها .

(من وحي البحث)

-3-

بشائر الخريف ورائحته تحمل إلى "س" حالتها، الآن، رائحة اختلاط ندى كاذب مع طين الأرض الزراعية التي تعبرها صباحًا، لتعيش حالة زائفة من التأمل الإجباري، تستمع لأحدث الأغاني المزعجة فى وسائل المواصلات المختلفة، وفي سكون الليل، تظل روحها في حالة اختناق إلى أن تسمع زعابيب الهواء تلف الشوارع، تسكت همهمات الرجال والنساء المارين بشجاعة، ينقطع النور عن المكان البعيد الذي تسكنه، تظل عيناها معلقتين في السقف الضيق، تقوم بطقس سري كالذي يقوم به الآن وحده، لماذا يستمتع بوحدته السرية ويجبرها عليها؟!

قدماها تمثلان سيرًا تمثيليلاً في أرجاء الشقة، اختنقت من الأفكار الكثيرة التي تطرأ على عقلها بحماس لتنفيذها، ولا تتركها إلا بخروجها وتحققها، ليس إنكارًا لنعمة التحقق، ولكن لمن تتحقق؟ فهى بحاجة إلى نظرة شغف من شخص بعينه، تحلم به وهو يعانقها ابتهاجًا بنصرها وتحققها، شخص تقصده وهى تتحرك في الحياة، يراها وتنتظر لحظة لقائه لتخبره ويخبرها، يتعانقان ويتعاركان ثم يتعانقان ثانيًا، ينامان معًا يتبادلان سوائل الحزن

والفرح المنسابة على الوجه والجسد في نعومة الحرير، يصلان إلى نشوة التحقق الفعلية في هذا اللقاء.

بشائر الشتاء تلهب أحاسيسها تجاه التأمل.. والكتابة.. والحب.. تنتظر زخاته بشغف ولهفة، تحب الشعور بالبرودة، تندفع في حضن ابنتها، تنتظران طارقًا مبتهجًا، تقوم البنت الصغيرة على عجل ولهفة إلى الباب، وهي تردد:

بابا جه.. بابا جه.

لا تتهلل ولا تقيم احتفالات، فقط تتجه ناحية المطبخ، تعد العشاء لثلاثتهم، يتبادلون حكايات اليوم، يتأففون لكثرة الحديث عن مشكلات العمل و"نفسنة" الزملاء ومن "زمبق" فلانًا ، ومن يغسل مخ فلان ، هكذا تستمر جلسة العشاء حتى يقوم هادئًا وهو ينغزها بكلمة ساخرة قاسية مقبولة منه تمامًا:

"يا سلام عليكي يا ملاك، انتي بريئة؟، ما انت شر انت كمان!".

لا تجيبه. تأخذها عيناه، يربكها بريقهما، تبتسم، يقبل البنت وهى تنظر إليه، يربت على شعرها ويقبلها ويحتضنها، يأخذها إلى سريرها، يحكي لها حكاية طويلة لا تنتهي بناءً على رغبتها حتى

إن وصل إلى نهايتها، فالبنت ترفض دائمًا أن تنتهي الحدوتة بمزاج الراوي وإنما تنتهي في الوقت الذي تريده، تنام أخيرًا، تنتظر "س" في لهفة على سريرها النحاسي القديم بأعمدته التي تحمل ناموسية بيضاء شفافة، بعدما عبأت المكان ببخور الصندل المعتق في خزانة ملابسها، يأتي مرهقًا متذمرًا من البنت.

– غلِّبتني على ما نامت.

لا ترد، وهو لا يعاود الكلام، يطفئ الأنوار وهو يتجه إلى الشموع، ومع كل شمعة تضيء تتضح صورته معكوسة بالضوء على الحائط، تتحرق شوقًا إلى يده المعروقة.

هيا، انهِ إشعال الشموع واقترب.

وقبل أن تبدي تأففها، تجد يده على رقبتها وشفتيه على مفترق صدرها، يقبله بلا توقف، وهى تتحرق شوقًا ليتحرك بيديه الحادتين في كل جسدها، يتحرك بحرية العالِم ببواطن رغبتها، ينتزع من آهاتها شغف اختراقه حواسِّها، تضمه أكثر ويدها تمر على كل المنحدرات الوعرة بجسده، تعشق عروقه التي تبرز بقسوة كأنها شبقها المتحرك بدمه، لا داعي بالمناسبة إلى أن تكمل، ليس من المهم أن يعرف أحد ما حدث بينها وبينه على السرير بهذه الدقة .

شبعت، شبعت، شبعت. هذه هي الكأس المُسكِرة التي طال انتظارها لها، هل يريد أحد أن يعرف جودة الأداء العملية تحت الناموسية؟ لا لن تخبر أحد، ستترك الحديث عن ذروة اللذة، التي وصلت إليها في نفس اللحظة، مع نفس التنهيدة، ونفس النَفَس، بنفس الدموع.

الصفحة رقم 1110 من دفتر الذاكرة

2005 – 2015

أكثر ما كان يخنقنها، أن تجلس مع إحداهن فتحدثها عن لون شعرها، أو عن فلان الذي "علقها" وشغل بالها

وكانت تكتفي بأن تنظر للسماء تناجى حبيبها الذى لم يخذلها يوما لتتقوى به على تفاهات البنات والولاد المترنحين من أوجاعهم والمترنحات تخبره كم هي محتمية بعشقه

(من وحي العقل)

-1-

اكتشفت "س" بعد سنين طوال أنها جميلة، وأن هناك الكثير من الشباب كانوا يودون الاقتراب منها، ولعدم ثقتها بنفسها كأنثى، وإصرارها على التعامل معهم بذكائها فقط، لم تقبل أن يستغلها أحدهم ليومين هكذا بأي حجة ويرحل، عزز عدم الثقة هذا رؤية الأهل لها، فهم يرونها بنت جدعة وبمائة رجل، وكانت لا تذاكر إلا مع الفتيان ولا تتحرك أيام الدراسة إلا معهم، ترتدى ملابس تشبه ملابسهم وتتحدث مثلهم وتغار من إحساسهم بأنهم الفاهمون الناصحون الذين يستطيعون أن "يعلقوا" البنات، لم تعط لنفسها الفرصة وقتها لاكتشاف أن الأنثى الأذكى والأنصح أصلاً، وأنها محركة الأشياء الحسية عند الرجل، وكان أكثر ما كان يخنقنها، أن تجلس مع إحداهن فتحدثها عن لون شعرها، أو عن فلان الذي "علقها" وشعل بالها، وتحاول أن تلفت نظرها إلى أن هناك شابا آخر ينظر إليّها ويحاول أن يشاغلها، و"يعلقها"، وهى بلهاء لا ترى، ثم تعاود صديقتها ، فتحكي لها عن هذا الشاب الذي "علقها" ثم لم يعد يتصل.

كانت تفكر في أن الفعل "علقها" هذا، فعل شديد القسوة من الرجل ومنتهى البلاهة من المرأة التي توافق أن تعلق، ذلك لأننا

كبشر لسنا مجرد أشياء تعلق، سواء في أستك أو في ميدالية مفاتيح، وكانت "س" ببلاهة غريبة تتخلص من هؤلاء المعجبين بأن تطرح عليهم أسماء لفتيات أخريات جميلات يستحققن أن يرتبطوا بهن، وعندما يميل قلبها ويرغمها على الشعور بوجودها البشري كأنثى، تتخلص فورا من هذا الشعور بأن تنظر لتجارب صديقاتها الفاشلة، تكره جدًّا أن يغار عليّهاَ الرجل الذي تحبه، تكره استخدام طرق عرفت أهميتها بعد ذلك لإثارة غيرته، وعرفت أن من حقه أن يغار عليَّها لأنه يحبها، كانت ترفض شعور الغيرة، تعتبره اتهامًا لها، فهي تحبه وهذا يكفي، وعليه أن يرى تعاملاتها الودودة مع الرجال الآخرين مجرد تعاملات فكرية وعقلية وإنسانية خالية من العاطفة التي تخصه بها، ولذلك- بصراحة- لم تعش طويلاً في حكايات الحب التي مرت في طريقها، كانت حريصة دائمًا على أن تنهي العلاقات حتى إن كانت لم تبدأ أساسًا، حتى لا يفرح هو في نهاية الحكاية بنصر الهجر.

داخل "س" إحساس دائم بالفقد، لا يبرحها، هناك ما ينقصها، وتعرفه جيدًا، تعرف كيف يجدد خلايا الجسد ويفتح مسام الروح للحياة كل يوم، طاردها حزن هؤلاء، الذين تركتهم قبل أن يتركوها، تقنع نفسها أن ما حدث كان لا بد له أن يحدث، وإنها لم تفعل سوى ما أملى عليَّها، وأن عليَّها أن تعيش بدون ذلك الإحساس

الخاطف بالعبودية لرجل، لا تحب انتظار رنين الهاتف، ولا أخذ مواعيد الغرام في أماكن العشاق، تكره أن يلمح العابرون لهفتها على حبيبها، وما بالها تهتم بالعابرين المجهولين؟! إنها بلاهة بالتأكيد، هي الحجة كما تفهمون، تنزعج إن اتصلت فتأتي الإجابة "مشغول"، أو يكون التليفون مغلقًا، أو لا يجيب؛ لا تحب أبدًا إحساس التجاهل، وبعد وقت طويل أيضًا عرفت أن العلاقات العاطفية التي مرت لم تكن من الأساس علاقات، وإنما هي محاولات منها لتصبح أنثى مكتملة، وعليَّها أن تحكي عنها، لأنها ليست أسرارًا على الإطلاق.

-2-

لم تحاول "س" صنع علاقات قوية برجال هائمين في الحياة، يسيرون في الطرق الداخلية للمدينة باحثين عن أنثى تحتمل نزقهم، حاولت أن تبدو قوية بمبادئها وأخلاقها التي شكلتها أمهات صديقاتها المختلفات، وكانت تحرص أمها على حريتها في اختيار صديقاتها، وتوافق على ما يبث لها عن طريق أمهاتهن لقناعتها بأن الأبناء يستجيبون للنصح من الأشخاص الغرباء أكثر من الأب والأم فجاءت تشكيلة النصائح مختلفة وغير مؤثرة على الإطلاق لعقلها ، بل وجدت نفسها تقلد أمها في كل ما تقوله

وتفعله، تجلس هادئة تشاهد التلفزيون بعد أن تكون قد أعدت للأسرة الغداء ورتبت البيت، ثم تنام في مكانها ثم تقوم تعد الشاي باللبن والكيك لتجلس بين "س" وأخواتها تحكي لهم حكايات شعبية جميلة، تدس فيها نصائح غير مباشرة، منها الأمير الذي يوصي قبل أن يموت بأن من يحصل على العرش ابنته من بعده، لأنها الأصدق والأنقى، فيحولها عمها عن طريق الساحرة الشريرة إلى بجعة نهارًا، وتعود ليلاً إلى صورتها الجميلة، وكما يعلم الجميع، تتصور كل أم أنها تضحك على أطفالها بهذه القصص الساذجة، ولكن كانت تستمتع بحكاياتها جدًّا، ورغم أنها لم تكن تحفظ الكثير من الحكايات الشعبية، إلا أنها كانت قادرة على التأليف إذا ما اضطرت إلى النصيحة، كانت تشعر بإحراج شديد من أن تنصح أبنائها بشكل مباشر.

أمهات صديقات "س" استغللن كونها بنتًا "أروبة" تعرف الكثير من الحواديت التي كانت تجيد تأليفها، في محاولة منها للتأثير عليهن بأنها العليمة أكثر منهن، حتى ساهمت ثقتهن فيَّها بالشعور بمسؤولية أخلاقية لم يرشدها مخلوق إليها، كما لم تؤثر عليها الشعارات التي لا ترضي الباحثين عن المتعة بلا سقف، كانت كالعصفور الذي يعرف متى يقف على هذا العش، ومتى يهجره قبل أن تعصف به الريح، لم تخبطه الأيام عمدًا في حوائط

الأحلام، بل سربتها إليَّها برفق ليلاً، حلمت بالكثير من الناس قبل لقائهم، وعرفت كثيرين تسللوا إلى أحلامها بعد ذلك، حاولت أن تصنع من دفاتر يومياتها شريطًا سينمائيًا طويلاً، تحتفظ فيه بأسرار كل من مر، وعرفت مع الأيام أن الأسرار لا معنى لها إن لم تكن مؤلمة وواشية بالشر، فامتنعت قليلاً عن كتابة اليوميات، لكن عادت إلى عادتها مع تكرار الأيام الحزينة، فهي تمر ثقيلة موحشة تجبرك على تأملها وتخليدها رغمًا عنك.

الصفحة 801 من دفتر الذاكرة

2002 -1999

رأته ذات مرة وهو يقف فوق عمود الإشارة فى ميدان التحرير، يلوح بعلم جيفارا، ويغنى أغنية جنائزية بلغة تعتقدها هيروغليفية كانت سعيدة بأنها لم تستجب لعلامات حاولت أن تلوى تفسيرها فى حلمها.

(من وحي الذاكرة)

-1-

في حضن القاهرة القديمة، تنام منطقة الحسين هادئة نهارًا، صاخبة ليلاً، ومثيرة في حاراتها، التي لا تعرفها أقدام السائحين، كان "عبد الرحمن" جار لجد "س"، عازف ناي شديد الحزن، ومجنون، منذ رآها بعدما عاودت زيارة جدها في الكبر أحبها، وقرر أن يتزوجها.

ببراءة تجلس معه وتستمع بانبهار لعزفه المؤلم على الناي، وحديثه عن أوبرا إسلامية جديدة مستوحاة من مآذن القاهرة القديمة، لمح الانبهار الساذج من مراهقة في الـ25 من عمرها، اقترب منها، داعبها مداعبة رقيقة، مستغلاً غياب والدته في السوق، ودخول إخوته شقة جدها، كانت الشقتان بمثابة شقة واحدة، قبَّلها، وكانت تلك أول قبلة جنسية تشعر بها في حياتها، تسللت قبلته داخل أحشائها الفائرة المكبوتة بالرغبة، ارتبكت ولم تعرف وقتها كيف تتصرف، أصابها الحرج والضيق أكثر من الشعور بالخوف من دخول أحد، وقال لها: أريد الاقتراب أكثر. واقترب إلى أن شعرت بصلابة قضيبه وهو يضغط على بطنها نظرًا لطوله اللافت، كان هذا الشيء يصل عند سرتها تمامًا، تفتحت في مسامها أحاسيس الإثارة الجنسية لأول مرة، رغبت

بشدة أن يتمّ الأمر، كان عقلها هو الذي يسيِّرها حتى إن ثار جسدها.

"عبد الرحمن" غريب الأطوار، يصاحب البيت وأوانيه النحاسية والألومنيوم القديمة التي زادها "الجلخ" المتجمع منذ زمن روعة وجمالاً، يتيه في غرف البيت الواسعة التي لو مُلئت عن آخرها بشرًا لما ظهروا فيها، فالغرف تتداخل بطريقة بيت جحا، تخرج من غرفة لتدخل في أخرى لتفاجأ أنها في الحمام، لا يخاف وسع الغرف المرعب في الظلام، ويحتفظ بصور لكل من وطأت قدمه هذا البيت منذ قرن أو أكثر، أجداده ووالديه وأصدقاء قدامى لعائلته.

كل هذه الأرواح التي تعيش معه تحلِّق حوله بفخر وزهو، يُظلِم المكان تمامًا، مكتفيًا بإضاءة مآذن الجوامع من حوله من خلال شبابيك البيت الكبيرة.

بيت قديم جدًّا، لو زارته هزة أرضية خفيفة فسيقع، تقف "س" وسط البيت العتيق يسحرها شيطان التأمل، لكن البيت ليس مهجورًا، لطالما حلمت أن تسكن هنا، عند جدها الشيخ عبد الرحمن كما ينادونه، أحبها وقد شعرت بهذا الحب، رغم أنها كانت البادئة في تشغيل أحلامها الصغيرة وهى تنظر إلى عينيه وتحدث

نفسها "ياه لو كنت أعيش هنا!"، واستجاب الله لدعائها ، وعرض عليها الزواج، لكن المفاجأة الأكثر دهشة، أن هذه العقلية الخيالية التي تمنتها واعتقدتها، ما هي إلا عقلية أحد الأشخاص المرصوصين في الصور الأبيض والأسود التي تملأ البيت.

بدأ ينتقد كل أوضاع حياتها، بحجة أنه يخاف عليَها وعلى سُمعَتها، واعترف لها أنه متزوج بعقد عرفي بسيدة تكبره بكثير، لأسباب لا تعلمها، وأنه لن يطلقها حتى لا يظلمها هى الأخرى، يرى نفسه أفضل الجميع، وباستطاعته أن يخلق في كل شخص عيوبًا ويميزهم بميزة واحدة فقط، هي التي تشفع لهم صداقته، آخر ما قاله لها أنها تكتب بخيال طفلة، معتقدًا أن هذا التعليق سيضايقها، لا يعرف أنها لا تعرف الكتابة إلا بارتدادها إلى عقل الطفلة.

كيف يعيش داخل برواز خشب قديم من براويز الصالة المعلقة، مع رجل يمسك في يده اليمنى نايًا، يرتدي طربوشًا أحمر، وبالطو أسود طويلاً على جلبابه الأبيض، رافعًا شاربه بفخر إلى أعلى، معتبرًا أن كل البروايز من حوله يحترمونه، ما علاقة الناي اليقظ بهذا الفتى المحنط في البرواز؟!

-2-

اعتقدت "س" أن عشقها لعبد الرحمن لم يكتمل لأنها لم تستطيع نسيان فتى الحشيش، لكن ما فعلته معها أحلامها التي كشفت لها حقيقته البائسة، جعلتها تتأكد أنها لن تعشق هكذا ببساطة، فقد رأت فتى الحشيش أكثر من مرة في حلمها، يخرج من بين أشجار الموز الضخمة، يجرى خلف فتاة شقراء نحيفة، لها ملامح أجنبية وذكورية، ينادى عليها فتهرب منه أكثر، ثم يقف للبكاء والنهنهة، فينتبه لابتعادها، فيجرى أكثر، كل مرة يأتي لها في الحلم، ولا تعرف لماذا؟ حتى هاتفته ذات مرة وطلبت منه أن يكف عن مطاردتها في أحلامها، فاختفى للأبد، ثم عرفت بعد ذلك أنه جرح أحد أصدقائه، لأنه تزوج حبيبته الإيطالية، وأنه كاد يصاب بجلطة أثر ذلك، ارتاحت خاصة بعدما علمت أن البنت لم تكن تراه أصلا وكانت تعامله بعطف وشفقة لأنه "سايكو" أي مريض نفسياً بلغة الفنانين والكتاب، وأنه ظن خطأ أنها تحبه، ولكن صدمته بزواج البنت جعلته "سايكو" أكثر ونبت لعقله عقل آخر، سار به في كل الاتجاهات المؤذية، وعندما رأته ذات مرة وهو يقف فوق عمود الإشارة فى ميدان التحرير، يلوح بعلم جيفارا، ويغنى أغنية جنائزية بلغة تعتقدها هيروغليفية كانت سعيدة بأنها لم تستجب لعلامات حاولت أن تلوى تفسيرها في حلمها.

دائما ما يلعب اللقاء الثاني بأشخاص فارقتهم دورا غاية في السخرية، فتجد ذلك الانبهار والوجد الذى انتابك في المرة الأولى وقد تحول لامتعاض وتقزز وتتمنى لو انشقت الأرض لتبتلعك، وتسأل نفسك بسخرية: هل هذا هو من ذرفت دموعي يوما لأجله؟، ثم تبتسم بمحبة لذاتك وترحل.

الصفحة 742 من دفتر الذاكرة

2007 -1996

نائمة في محارة لونها جميل جدًّا، وعيناها تريان كل شيء حولها رغم أنهما مغمضتان، وفى عمق المياه ترى سمكا كثيراً حولها بألوان زاهية، تعجبت لأنها لا تجيد السباحة، ومع ذلك استطاعت الغطس والوصول للمحارة.

(من وحى الأحلام)

-1-

ترددت "س" في كتابة حكاية الفتاة التي صارت توأمها، لا تفارقها، سواء في الواقع أو في الخيال، تشعر في قرارة نفسها أن مجرد اتخاذ قرار بكتابة حكايتها، سيجعلها مجرد ذكرى، تدرك تمامًا أن الشروع في الخط الأول معناه كتابة أول حرف من كلمة النهاية.

تمنى كل إنسان أن يكون محظوظًا بصداقة مثل هذه أو حتى يدخل في صداقة معهما ، ليشعر بأن الدنيا جميلة ولا يزال فيها الخير فوجهاهما يستمدان جمالاً غريبًا من روحيهما، تتعانقان دائمًا، سواء أمام الناس أو خلسة، أعينهما بها طيبة وحنان وشفافية يندر تكرارهم في اثنين من البشر على الأرض، فما بالك بأن تجدهم في اثنتين متصادقتين! بل وتحاولان دائمًا أن تجعلان كل الدنيا حولهما جنة ونورًا.

فهما دائما في حالة حب مثلي عذري حقًّا، فكل منهما تمنت أن تتزوج رجلاً يشبه الأخرى، كانا كزوج وزوجة، واحدة منهما قوية دائمًا والأخرى رقيقة، تحركها تجاه الطرق الجميلة، وكانت الغيرة من علاقتهما خصوصًا من هؤلاء الشباب الذين حاولوا اختراقهما، تأتي إليهما بأشكال مختلفة، ولم يتأثرا مرة واحدة، إلى

أن حدث وذهبت كل واحدة منهما في طريق، شأن كل نهايات الحكايات الجميلة. ولذلك لن تكتب حكاية عنها هنا، فلا تنتظروا حكاية "عالية "هنا ، لأنها تمثل أغنيات أكثر بهجة، لسنين لم تمر للنسيان ، بل استمرت مع الذاكرة .

فقط احترسوا من مصاصي الأرواح .. فهم يتربصون بأيامكم وطاقتكم وأرواحكم احترسوا لأنهم بعد وقت ليس طويلا تحدث عملية التحويل الرضا بالوحدة نعمة كبيرة لا يقدرها إلا من أحيط بمصاصي الأرواح دون أن يدري ينتهي البشر فيه ويتحول لشرير بائس مثل "س" التي هي صاحبة الروايات المنسية والأيام المسروقة ، فهكذا كان مصير حكاية عالية و"س"، حيث تحولت كل منهما لشريرة بسبب مصاصو الأرواح ذوى العيون الطيبة .

الصفحة 745 من دفتر الذاكرة

2004

تخطت ذلك الذى أخذ منها قطعة اللحم الصغيرة التي تتباهى بها الفتيات ، وتركها بحجة الحرية وخلاصها من آثر العادات البلهاء، وترك لها خطابا صغيرا بحجم قطعة اللحم تلك:

"أنا من أهديتك الحرية الجامحة بتأنٍّ كنار خامدة في عمق قمة بركانية"

فنظرت للسماء نظرة ثقة وهى ترد عليها بقوة ، سبق وان وصلتني الرسالة وتعلمت الدرس . فاعتدت الغياب والفقد.

لذلك .. فهى لا تفرح بلقاء مهما طال فهو يتبعه دائما غياب وفقد.

(من وحى أوهام العذرية)

-1-

اتفقت "س" مع عزيز وإيهاب وبدوى على الذهاب لحفل " في المعادي". لمجموعة من أصدقائها المثليين ولكن من الرجال ذو الميل الأنثوي، يرتاحون سويا ويثقون في "س" ربما لإحساسهم بحبها لهم واحترامها لرغباتهم واختياراتهم.

وفى أثناء غناء أحدهم لأغنية "صباح" عاشقة وغلبانة، أخذ يرقص عليها بدلال محاولا لفت نظر الرجال إليه، استأذنت "س" ودخلت الحمام وقفت أمام المرأة تضبط نفسها، فإذا بفتاة جميلة ذكرتها ب"شمس البارودي"، نظرت لنور بعينيها الواسعتين وهى تقف أمام المرآة المجاورة، ورمقتها بنظرة أربكتها ثم ابتسمت، ردت لها ابتسامتها، سألتها "لون شعرك جميل عاملاه فين؟" فأجابتها، أنها تصفف شعرها بيدها، وتلونه بالحناء، ثم اقتربت الغريبة التي في الحمام أكثر من "س" بشكل مريب، وهى تقول لها :

– أنا "هالة"

– أهلا وسهلا هالة

خرجت أخر سيدة كانت في الحمام وهى تنظر لها بغمزة ضاغطة على شفتيها، اقتربت منها تلك ال "هالة" بطولها الفارع وقد اخترقت نظراتها روح س:

إنتي بتلبسي حمالات صدر نوعها إيه؟

ألجمها السؤال ولم تجب، فتابعت

"أصله جميل أوى" وهى تخترق صدرها بعينيها

فانتفضت ولم تدرك فحوى سؤالها إلا عندما مدت يدها على صدرها بالفعل، وقرصتها من الحلمة وكأنها تعرف مكانها جيدا، خبأت فزعها، وهى تنزع يدها، فابتسمت هالة ابتسامة الخبير، وقبلتها قبلة خاطفة وخرجت تاركة دهشتها وفزعها في مكانها وهى تقول لنور مع إشارة حادة بأصبعها : "هاجيبك".

ظلت لسنوات تشاهد "هالة" هنا وهناك، وفى كل مرة تنظر لها نظرة رغبة ولوم واحترام في مزيج غريب، صادقتها "هالة" دون إذن منها، وكانت تحكى لها فى كل مرة تراها حكاية عذاب جديدة، دائما ما تراها "س" ومعها شخص جديد سواء كان رجلاً أو امرأة تتناوب معهم الاعتداء على أحلامها، تجوب الأسِرَّة بحثًا عن تلك اللحظة المنشودة، لا هم وصلوا ولا هي وصلت، تطورت

أحلامها آخذة شكل وهم كبير أسمه الحرية الكبرى، تعتقد أنها وصلت إلى آخر وهمها، لم تكفّ عن التشدق بأهميتها، وكلما زاد إعلانها عن ضرورة أن يكرر كل اثنين فعلتها، يتعرى رجلها الجديد كشبح يتخلص من كفنه على القبور، يخلف بقايا روح تقيم الموتى، تتعرى على سرير لا يملك ثمنه، تصنع داخله رعبًا من بقايا الأرواح الهائمة على سريرها قبله، حالة الحب القاتلة طردته، لكن بقي حزنه في رحمها، ليصبح ابنًا لحزن لن يبرح أحشاءها، هي وهو لن ينعما بعيدًا عن بعضهما، سيطوف أسرَّة الغريبات، وهي ستحاول أن تجمع ملايات بيضاء كثيرة، لترتديها وتلعب لعبة الأشباح البيضاء الذين يحرسون البيت من الغرباء، الذي بالتأكيد لن يطأ المكان رجل مرة أخرى.

يعاني دائمًا من يهجرها، حاول حبيبها مصادقة "س" خصيصا ليتقوى بها على نسيان هالة، فهو يشعر بالتشويش المستمر بسبب ضجيج السيارات المارة بجوار قلبه، يصارع إحساسًا بالهدوء يرفض أن يستمر، يرفض إحساسًا مفاجئًا تجاه "هالة" لأنها لم تمهله الوقت الكافي ليمارس ذكورته بمطاردتها، إلا أنه يشعر بأن الضغط عليه في منطقة المشاعر بالتحديد أمر مؤلم، فهو لم يعتد اقتحام الآخرين، هو فقط من يقتحم عقله وروحه بكل التفاصيل الغريبة للأشياء، لتلتقطها، وتصنع منها

سحرًا مسموعًا يوقع من يسمع في الأسر، أما أن يقع هو في الأسر، فهذا أمر لا يقبله.

استمر حبيب هالة ، فقد علمته أن حرية الاختيار صعب، وأن عليه أن يتخلص من تلك الثوابت المتحجرة فى عقله، فليس هناك حب دائم ولا صديق دائم ولا شىء فى هذه الحياة له صفة الدوام.

قامت بدور العاهرة الحكيمة مع كل من عشقها سواء من النساء أو الرجال، كانت تخبرهم إنها لن تمل البحث عن الحرية، فقد تخطت ذلك الشبح الذى أخذ منها قطعة اللحم الصغيرة التى تتباهى بها الفتيات، وتركها بحجة الحرية وخلاصها من أثر العادات البلهاء، وترك لها خطابا صغيرا بحجم قطعة اللحم تلك: أنا من أهديتك الحرية الجامحة بتأنٍّ كنار خامدة في عمق قمة بركانية.

دائمًا ما تستعد للانطلاق إذا ما عبثت الطبيعة العادلة في فوهة البركان، ورغم اندفاعه الكامل نحوها، وانشغاله الدائم بما لها وما عليها، ورغم أنه يعرف كيف يلامس كل الأوراق الخضراء برِقَّة لا تؤذيها، هو على يقين أنه أول من لمسها بهذه الرقة، فإن الأوراق تجف بعد مروره وتقع قبل خريفها المكتوب ، إلا أنه تركها

لمجرد أنه تأكد أنها لم تكن قوية بالقدر الكافى لتحمى تلك القطعة التى ظلت تؤرقه كلما أراد الزواج بفتاة، حتى وصل للستين وهو يخاف أن يقع حظه فى إحداهن، ممن اقتطع لحمهن بفعل رجل يبحث عن حرية ليست حقيقية، ولا تمثله، إنما هو فقط يستخدمها حتى يقتطع لحم البنت ويرحل متشدقا بكلام لن يمل كل شاب جديد من ترديده إذا ما أراد خلع نفسه من البنت التى صدقت وهم الحرية الذى يفتقده الرجال.

اكتشفت "س" أن لديها طاقة تكفي لاحتضان العالم، بقي معها أناس يتمنون أن يأتوا بنجوم السماء كطوق على رأسها، والكثير من البشر الذين ظهروا في حياتها وقت وجود أمها وأحتضنهم ألبوم عائلتها، يطوفون في هوائها كما تطوف الملائكة حول طفل مذعور، يحمونها بأرواحهم الطيبة بخفة، ويضعونها على أرجوحة تتماوج بها لتصل إلى غصن أعلى شجرة فرعها في السماء.

-3-

تكره "س" الصديقات اللاتى يعشن بالأسرار، ومع ذلك عندما اعترفت "هالة" لها بأنها تمارس العادة السرية كل يوم، قطعت

علاقتها بها، لأنها لم تحتمل مشاهدتها وهى تعرف أنها تقوم بهذا الفعل المؤلم.

حاولت "هالة" نسيان واقعها بمواقعة "س"، لكنها لم تكن بالجرأة الكافية لموافقتها، وتركتها وهى تقارن بينها وبين عالية في نفس التوقيت الذى تهيئ نفسها فيه لفراق أبدي بينها وبين عالية، فهي تذكر رائحة الخريف وهما جالستان فى ضوء شباك الصالة، يتممان طقوس البنات التجميلية، وينفذان أفكارهما الجنونية، ينزلان لزيارة الحسين للبحث عن حلي فضة تناسبهم، تبحث عن خرز للعقود التي تصنعها عالية مقاس رقبتها فقط، لن تسمح لأي مخلوق أن يسرد عنها حكايات، تذكرها دائمًا بدمعة مختنقة، لن تحتمل حتى سماع الاسم، فهل تعرف معنى أن تموت أحلامك وأنت تراقب روحك تهرب إلى دنيا أخرى؟!

دائما ما تسير "س" فى شوارع وسط المدينة ، وبعض الأماكن التى جمعتهما ، تضع فى أذنها أغنية "فيروز " الجميلة " عالية "، فهم تراها دائما وتحادثها ، أجمل فتاة عرفتها، تشبه "إخناتون" ذلك الفرعون الذين يشككون في رجولته، لأن نصفه الأسفل يشبه جسد أنثى، ولا يزال خبراء الآثار حتى الآن يبحثون في حقيقة إخناتون، حتى من تشبههم غير عاديين. كانتا تتندران

بـأن عاليـة بهـا شـبه بأخنـاتون وأن "س" حفيـدة أمنحتـب الثـامن عشر.

لم تكن مجرد صديقة عابرة، ولن تكون ذكرى تذكرها وتترحم على أيامها مصمصة شفتاها، ستظل معها في كل خطوة وكل تصرف، تأخذ رأي روحها الساكنة داخلها في كل شيء، لن تنزع صورهم من أماكنها، هذه الصورة البادية على ملامحها وجسدها، والتي تدفع أيًّا كان يسأل "س" بمجرد رؤيتها: "أخبارها إيه؟"، لن تجيب إلا بأنها في أفضل حال، لم تستوعب عالية أن الروح لا تقبل القسمة على اثنين، كانت "س" راضية بالقسمة لكن عالية انزعجت، ولن تحاول "س" استمالتها و"تحنين" قلبها، كتبت خطابًا طويلاً، عطرته، وضعت فيه آخر ما لها عندها، قرطها الياقوت الأحمر، قالت لها كل ما تشعر به بسبب فراقها:

"عالية.. صديقتي وسكن روحي... أكتب إليكِ بعدما فاض بي الكيل من أشباه البشر الذين أتعامل معهم في العمل والشارع والمقهى وجيراني، خارج سور بيتنا لا توجد أماكن للبشر، بل غابة موحشة، أكتب إليكِ بعدما تأكدت أن سماءنا تحلق فيها أرواح طاهرة فقط".

-4-

كانت "س" على يقين أن كل كلمة كتبتها وصلت إليها، وتعلم أنها فعلت نفس الشيء ولم تنفذ، لم يتألما كثيرًا في الفراق، وبمجرد أن نامت "س" بجوارها على سريرها القديم في بيت العائلة بـ"الإسكندرية"، بدأتا في الودودة، فأعادت غرفة عالية ذكريات مهمة لها، سردت لها عن وحدتها وهي صغيرة بين لعبها ورسمها على الحائط، وأخبرتها "س" عن ذكرياتها الكوميدية التي ارتبطت بقِصَر قامتها وعن أبيها الذى تعشقه وكيف أنها ورثته ..تقطع عالية استرسال "س" في عشقها لأبيها، لأنها ما أن تفتح في سيرته وسيرة أمها حتى تنتابها هستيريا "الرغي"، تسألها عالية :

إلا بالمناسبة مافيش أخبار عن الحبِّيبة؟

تحتار في الإجابة على سؤالها، بصراحة ليس لديَّها ما تقوله عن سنينها التي مرت بلا حبيب. تتوه مع عقلها الذي تعجب لسؤالها، لا تشعر بمدى تأثير وجودها على مشاعرها العاطفية، وكأنها صُنِعت خصيصًا لها، تتساءل عن الحبِّيبة بكل القسوة الأنثوية، تتجاهل أنه ما عاد لديَّها طاقة لتحب رجلاً وهي تتعامل معها كرجل حقيقي، تُرى هل تحتاج إلى رجل؟ فعالية تغدق عليَّ "س" بكل هذا الحب والحنان والحنوّ الذكوري، تجلسها في حضنها، تصفف لها شعرها ، تدهن جسدها بالكريم المرطب،

وتشعل البخور والشموع، وتحضر لها طعامًا خفيفًا على طاولة بها أوراق برائحة الزهور، وقلم تفوح منه رائحة المسك، وتقول لها "اكتبي هنا.. هيا أريدك أن تصنعي أجمل قصة في هذا الكون"، وبالفعل تكتب وتكتب ولا تملّ من الكتابة.

تجلس بعيدًا، تنتظر فقط أن تطلب "س" شيئًا، تمنع عنها وهى في حالة الكتابة كل شيء يمكن أن يضايقها، عودتها على التدليل، وعلى الإحساس الزائد بأنوثتها ورقتها وطيبتها، تراها نجمة، وعلى من يريد أن يطولها، أن يرتاد مركبات الفضاء للوصول إليَّها. لم تكن تعرف ما هو الحب المثلي حقًّا إلا عندما انتهت حكايتها مع عالية ، كانت رمزًا حقيقيًّا لحبيب.

الصفحة 1200 من دفتر الذاكرة

من ألم ساكني الدفاتر

بك يا رفيق الطريق الطويل اتقوي علي اغواءات الرغبات الدنيوية ..

بك يا عشيق روحي انقذ نفسي المتعبة من فخاخ الطريق المخبأة بمهارة ..

بك يا حبيبي صعدت السلم بمرح الاطفال وجهد العجائز وحكمة المجاذيب .

بك ولولاك يا ملك روحي ما اصبحت محصنة ضد الضعف ..

قوتي منك يااا قوي

(من وحي الشوق)

-1-

تعلم أنها مسألة وقت، طال ربما، لكنها على يقين أنها ستخرج من ظلمة النفس المختنقة بالوحدة، وستخرج أنت يا من تعرف نفسك، من أنانيتك وتمردك على هذا المظهر الساذج لإنسان وحيد، ستتمرد على برودة المشاعر بثورة حقيقية على قهر مجتمع يتفنن في الكبت.

مسألة وقت قبل أن يتحرر كل العبيد، وأن يظل القائم على الإبداع عبدًا لغريزته الجنسية، وما إن يلمح ثديًا كارتونيًّا عاريًا في الروايات المصورة يتحرك ساكنه، ويلقي بتهم جوفاء على صناع الفن، مسألة وقت أن يسعى البُلْه إلى تحقيق غاياتهم بوسائل مبررة لهم، وحدهم، يرونك كما يريدون أن يروك، لا كما يجب أن يروك.

تجلس في غرفتها تسترجع طفولتها وتتذكر سريرها الصغير، ترى نفسها وهى تقرأ في كتاب صفحاته تعدت الأربعمائة، تقطع قراءتها بنظرة بعيدة من بلكونة الغرفة إلى السماء، تراقب أسراب الحمام وهي تتنافس على أعلام العشش الكثيرة من حولها، لم ترَ مرة حمامة تتأخر، فكل عضو في السرب له دور في المقدمة، كل عضو له الفرصة ليصبح أول السرب وقائده، تعود إلى سريرها

الصغير، الذي استند إلى حائط مليء بالكتابات عن أيام مرت بحلوها ومرها، وخطوط لصديقات دخلن غرفتها، كل واحدة منهن كانت تترك بخطها كلمة للذكرى، ثم تأخذها الأيام برفق. تحادث أشباحًا تستمع لهم أمها كلما انتهت من ترتيب غرفتها وخرجت لتجالسها قليلاً، فتخبرنها بهدوئها المبكي:

"نفسي يمشوا من عندك وترتاحي بقى يا "س" من العفاريت اللي عليكِ، مش هيسيبك أبدًا إلا لما تسيبيه، تعالي أوديكِي لشيخ يحلّ لنا العقدة". تتعارك معها لاعتقادها، تخبرها بنفس الهدوء الشبحي، الذي تتقمصه ساخرة كلما حادثتها في ذلك الموضوع:

"ماما، أنا مرتاحة قوي مع عفاريتي".

تتركها وتعود إلى غرفتها التي تشعر أنها تنتظرها بشغف، تحتضن عرائس قطنية كانت تسميها على أسماء صديقاتها وتأتنس بهم في غيابهن.

بالمناسبة لم تعد تؤمن الآن بسكن صديقاتها في العرائس القطنية.

تشتري كتابًا جديدًا، ربما تسحب كشكولاً، لتعيش دور كاتبة نزل عليها الوحي سهوًا، تدخل ذاتي أكثر، تتألم لأن أمها ماتت

قبل ان تفهم أنها كانت سعيدة بعفاريتها، حذرتها مرارًا وهي تبكي، وهى تتعجب من بكائها:

"يا بنتي العمر بيجري، والعفاريت ما بترحمش، الحقي نفسك، أنا خايفة عليكِي وعايزة أطمِّن قبل ما اموت".

بكل أسف وحب، جرى العمر، جرى إلى غير رجعة، لم تعد أمها هنا كي تخرج إليها مذعورة من عفاريتها ، لتتقوى بخوفها عليَّها، وتدَّعي القوة، ثم تعود إليهم تحاربهم، كي تنادي عليها إذا ما مر ذلك الشاب الوسيم، الذي كانت تنتظره "س" كل يوم، وهو يمر من تحت البلكونة، فتسأل أمها: هل ينتبه لى ويعرف أن هناك فتاة تحبه في السر؟ فتخبرها بكل الحب والخوف، أن حبها ينتظرها بعيدًا عن هنا.

تنادى عليها ..

(أين أنتِ الآن؟ أريد حضنك حالاً.. أريده أكثر من أي حضن في العالم.

بطة بطوط، هل من ابتسامة أراها في الحلم تجعل أيامي القادمة في حمرة خديك، ولمعة عينيك، وبياض قلبك؟ أنا ذاهبة الآن، للنوم في حضن صغير يملأ عليَّ فراغ شقتي، لا يشغلني

فيها النظر من البلكونة، ولا يمر في سمائها حمام، ولا تداعبني فيها عفاريت، أنتظرك في الحلم، فلا تتأخري هناك، ها هم أولاء يا أمي أصدقائي، ظهروا في حياتي مرة أخرى، نفس الأصدقاء الذين رأيتِهم وحواهم ألبوم عائلتي، يطوفون في هوائي).

ترى مع كل هذا الضجيج الذى عاشته ، هل يمكن ان تجد مكانًا للوحدة؟

منذ وعى إحساسها بجسدها وهى تحلم أنها تطير بلا توقف في السماء، جسدها يحلق بصورة ساحرة، بين الأرض والسماء، وهى طائرة تلمح طائر مماثل تتمناه يطير بنفس طريقتها، محلقًا بلا أجنحة، ونظرًا إلى عدم وجود تلك الأجنحة، يفقدان السيطرة على التحليق، فتتجاذب أيديهما، ويصنعان بجسديهما جناحين كبيرين، يتزنان لإحساس الرعشة الطفولية الذي انتابها مختلطًا بالخوف من السقوط أو الصعود أعلى من المسموح. الأرض ملجأ العاشقين بكل تأكيد، السماء مكان للقاء الأرواح الأثيرية، كان الإحساس أقوى من الرغبة في الطيران، حاولا أن يتعانقا، ولكن كلما فقدا السيطرة، فلا يساعدهما الهواء على الثبات، فيعاودان وزن جسديهما، لم تحتمل مقاومة رغبتها في العناق، فكا أيديهما،ووقعا، نعم،ثم اختفيا.

عندما استيقظت "س"، وجدت نفسها تحتضن وسادتها بسعادة ودموعها تبللها، رسمت الدموع علي الوسادة وجهًا عبوسًا، كأنه يبكي، حلمها لم يتحقق حتى اليوم، فهناك حبيب يرمي جسدها بالصخر، يطعن قلبها بحنظل الأيام المرة، يدفعها دفعًا إلى عناق هوى الأشباح، يعترف لها أنه يبثُّ لها أحلامًا جنسية تحمل رائحته كي لا تفكر إلا فيه، يرفض الرحيل عن روحها، يسير خلفها كظل شجرة، يحجب عن قلبها همسات الحب التي تسري في أوصال البنات. ترى هل يسعد لأن الأيام تمضي فقط في أحلامها؟!

الصفحة الأولى في دفتر جديد

هنا يزحف الزمن ببطء على شعرها ، وتتمحور السنين فى بؤبؤة العين التى تتحايل على السعادة ، تتأمل الكون الحزين له سنوات لم تدرك منها إلا نصف عمرها ، حيث عاشت العشرون الاولى ببراءة الأطفال والعشر الثالثة بشقاوة المغامرة والتجريب فى

الحياة والحب والأمل ، والعشر سنين الرابعة فى لهاث لبناء أربع جدران وسقف يحميها من أمطار غزيرة لن تساعدها فى نمو زرع أرض بور ، ولكن سيساعدها السقف على النوم فى أمان رغم أصوات القنابل ومشاهد الدماء وصراخ الجميع ، هنا تتنهد السيدة "س" وتفكر فى مصير الطفل الذى سيقابل الايام القادمة والتى ربما ستحياها او لا تحياها ، الشعر الأبيض ليس فى كل الأحوال وراثة ، وليس فى كل الأحوال وقار وهيبة ، وليس فى كل الأحوال نقص فيتامين ، الشعر الأبيض أفكار تمردت على الالوان القاتمة لتتضح وتفرض وجودها وأنه أن أوان تحقيقيها .

(من وحى آلام الحكايات)

نظرت "س" الى الحال الذى وصلت اليه صديقة أفلتت من مصاف الفتيات اللائي لديهن أمل، إلى مصاف العوانس إلى الأبد، وربما تبدلت الأيام من الشقاوة والمرح إلى شجن وكآبة وألم، تذكر بعدما أصبحت أمًا بعد الثلاثين كيف تختلف كل الرؤى وتتناثر الشخصيات الكثيرة التي عبأت بها نفسك في كل الدنيا، ولا تذكر أنها عشقت يومًا شخصاً عبرته سريعًا دون كلمة، ذلك يخلف جرحًا غائرًا. هناك دائمًا جرحًا في القلب قبل الثلاثين.

ترفض أن تصبح رياحًا من رمال تطلق بلا جدوى صرخة إنقاذ رغم انعدام الرؤية، ثم تجلس تشرب عصير دماء الأصدقاء وهى تتحسر على ما فات.

ترى فى نفسها شمس الملوك في زمن امتلأ بالجواري الحزينات، تحمل في يدها ذلك الورد الليموني النادر، تضعه على طاولة لوليمة عشاء لم تتم، ثم تذهب لارتياد قطار الليل كشاهد إثبات على عصر ولى من البراءة والحلم... تحلق كنوارس البحور المبهجة وستطوف فوق رؤوس العباد العابسة تنقر فيها بالحب، ربما كان له أثر على تلك العقول المقفولة على اليأس والموت. لن تجلس بجوار الحائط تخبر المارين عن مآسي الزمن الملعون، وكيف حولها من طائر حر طليق في الأفق إلى طائر أرضي لا

يقوى على الطيران خوفًا على ما يختبئ تحت أجنحته، لن تستسلم لفراغ البهجة، ستجمع كل الأصدقاء ليغنوا معها... فليذهب بعيدًا كل من أراد البكاء، فبعد الثلاثين لا وقت للبكاء.

في سابقة لم تحدث من قبل ترك البهلوانات سلك السيرك، نزعوا عن أيديهم حبال الأمان المشدودة لأعلى، تمردًا على جمهور بلا رحمة، تمردًا على أطفال يضحكون على سخافات واستعراضات سوقية، اجتمعوا وقرروا أن يتحرروا من أسر الخيمة ذات الرائحة العفنة من أثر مخلفات زملائهم حيوانات السيرك، الذين خرجوا بهدوء دون إزالة الماكياج بمختلف أشكاله، ما بين وجه باسم وآخر مكتئب وثالث رسم عينه بدموع ثابتة باللون الأزرق، جميعهم خرجوا بملابسهم أيضًا، تحركت مسيرتهم بين الناس، لم يلتفت إليهم أحد؛ تأكد لهم أنهم خارج عالمهم غير لافتين ولا يؤدون دورًا، غير أنهم سيحاولون لفت نظر الناس إليهم بنفس الطريقة البهلوانية داخل السيرك. عادوا.. عادوا بنفس الهدوء الذي خرجوا به، ومع بداية العرض الأول بعد العودة، رأوا الناس مبهورين بهم ويصفقون لهم كالعادة، نظروا جميعهم بدهشة وتساءل أحدهم: ترى لماذا لم يعيرونا انتباهًا حين خرجنا من هنا، كأننا أشباح لم يرونا؟

ظلام تامّ.

لمح البهلوانات داخل الحلقة الجمهور وهو يخرج وقد تحول إلى بهلوانات من نوع غريب.

هل يقتفي البشر آثار الحزن؟ هل لا نعيش إلا بالألم؟! كم من مرة أحسسنا أننا نريد البكاء بلا سبب؟!

-2-

يظل في ذاكرتنا دفتر قديم، ملقى بإهمال متعمد، في آخر درج من أدراج العمر المسروق، دفتر تتحرك فيه الشخوص المنسية برقة وعنف، وبخوف وجرأة، يحاولون الخروج، لكن الرفض دائمًا هو الرد الوحيد على رغبتهم، كيف نستطيع أن نتغلب على الضجيج الذي يصنعونه في محاولتهم المستميتة للخروج؟ كيف نسد آذاننا عن الصراخ المستمر للخروج من الأوراق الصفراء الباهتة، ذات الرائحة المميزة للزمن؟

من منا يستطيع أن يفتح -ببساطة- ذلك الدرج، ويخرج ذلك الدفتر الكبير، ويبدأ بقسوة في فتح صفحاته ليطلق سراح عمره؟ هل بإمكان الواحد أن يقلب في صفحاته دون أن تستوقفه مئات الأسئلة حول مصائر ساكني الدفتر؟ هل -ببساطة- بإمكاننا أن

نصنع منهم مخلوقات طبيعية من لحم ودم ونتابع تطوراتهم دون أن نسأل عن الفرق العظيم بين دفترنا المخزَّن بإحكام في الدرج وما آلت إليه حالهم؟

تلك المسألة شديدة التعقيد، فساكنوا دفاتر س، في الحقيقة لا يسكنونه بالفعل، بل هم يسكنونها هى، يطاردونها هى، واحتفاظها بهذا الدفتر القديم، فقط لتراجع كل فترة حساباتها مع الزمن، وترى هل زادت الخسارة أم المكسب كان حليفها هذه المرة، وإذا أتتها القدرة واتخذت قرارا بأن تعتق عبيد ذاكرتها منها، وأخذت الدفتر لتلقي به في أقرب محرقة، ستعود فورًا لتبحث عن دفتر أقدم منه، وربما أمسكت بدفتر أبيض جديد تخط بيدها اللعينة تلك أبطاله الجدد، وأسراها الجدد، إنها لن نتخلص من الآسر، وتريح نفسها بأن بعضنا أسرى دفاتر بعض، سواء عرفنا، أم لم نعرف، سواء أردنا أم لم نرِد، نتحول إلى تاريخ، يعثر على ما تبقى منا، أسير جديد ليأسر عمره بنا، حقًّا إنها مسألة تحتاج إلى كثير من التفكير والحسم.

تكره العبودية، لذلك تحاول أن تتخلص من أسراها، وتخلص نفسها من الأسر. و تظل الفتاة ذات الثامنة عشر مقيمة داخل السيدة الأربعينية تبحث عن فارس أحلام مفقود فى كل الحواديت

التى كتبتها وروتها وعاشتها وكل يوم تجمع منه قطعة من هنا ومن هناك ، لكن حتى الأن لم تكتمل كل القطع ومازال برواز "البازل" فارغا ، وتخبىء القطع تحت وسادة أحلامها ، سيطرق بابها، فهى تشعر باقترابه جدًّا، لا يمكن أن تعيش هكذا، هى وهو في جزيرتين منعزلتين، يحوطها من كل جانب، يداعب أيامها بابتسامات، تحمل في رائحتها كل الورود، وبقبلات يدغدغ احساسها كل برود، تعرف أنه يقترب، طاقتها له فاضت، واشتياقها إلى مداعبته صارت نارًا، هو الحلم الذي ينتظره كل إنسان، الهدوء والسكن، الشافي من كل جراح، المعين على كل صعب، ينزع عن كاهلها المتعب كل أحزان العمر المسروق، الحب.. تلك الكلمة المجانية، التي نطلقها بلا وعي لأي مخلوق نرتاح إليه، فنقول ببساطة "فلان.. إني أحبه".

نعم، إنها تحب كل فلان عرفته، بلا فرق بينهم، حتى من لم تعد تقابلهم، تحبهم، الحب طاقة إيجابية، أما من أراد أن يقف مكانه، ويعطل أيامه ومشاعره عن الوصول إلى الغد، فليكره، فليتوارى خلف مفهوم أن البشر لا بد أن يشعروا بالكُره مثلما يشعرون بالحب، مع الوقت، اكتشفت أن القدرة على الكره تحتاج إلى جبروت لا تتمتع به، الكثيرون مِمَّن عرفتهم لا يتمتعون به

أيضًا، الحب طاقة تكسر الجبال وتبنيها، تشفي من السرطان، وتعالج الكلى وتريح القلب المتعب وتصبح معه كالقديسين.

من يا ترى بإمكانه أن يكون قديسًا عاشقًا مثل فالنتين المسكين الذي ساعد العشاق الراغبين في الزواج، قدم لهم الورود، فحكم عليه بقطع رأسه؟ عشق أبنة السجان التي جعلها تبصر بطاقة العشق لديه، عشقها، ولأنه كان يعرف نهايته، ترك لها أول بطاقة حب في التاريخ قبل إعدامه، كتب عليها بدمه "من فالنتين حبيبك" ولم يدرك وقتها أن العالم كله سيتذكره يومًا كل عام، لم يعرف أنه بتضحيته من أجل كل العشاق أصبح رمزًا أبديًّا للعشق، أتبارك به، لأنني أعشق بلا توقف، لا أرى إلا جمال الحياة، تقية بقدر طاقة الحب داخلي مِمَّا يجعلني على يقين بأن:

"الحب سر إذا وصل إليك، كشف عنك الحجاب، وأصبحت أحد أولياء الله".

-3-

أخيرا وبعد انتهائها من تمزيق دفتر عبيد الذاكرة، وإطلاق سراحهم ، يبدو أن الجسد يأبى الراحة والهدوء، وكأنه أعتاد التعب

والعذاب، فما أن أراحته، حتى تمرد رافضا أن تجلس مستقيمة الظهر خالية الهموم، فأخذ النبوت المؤذى يكسر وسطها المكسور أصلا ويزيد فى تكسيره بلا أى رحمة، لكنها عنيدة يا نبوت غفير الصحة الملول من الرقاد على عتبة باب صحتها، وستكسر ذلك النبوت الصلب، وستجعله يلين بحرارة إيمانها بوجودها فى هذه اللحظة الحاسمة قوية وعفية لأن هناك أنسان يحتاجها، ولن تتركه وحيدا لأجل قسوته الغبى، هى هنا وستظل هنا رغما عنه، تحب قوتها ودنيتها ولن تمل أو تيآس مهما زاد الضغط عليها وعلى وحدتها، ستجلس مستقيمة الظهر، وستنظر من خلف الشبابيك على ذكرياتها التى تطير فى السماء تلاعبها بحواجبها وتخرج لها لسانها، وٍستطبطب على قدمها المتورمة من طول المسير ثم طول الرقاد، لا تقلقوا، سترقص يوما رقصة الفرح التى تمنتها صغيرة أمام جمهور صالة بيتها المتخيلين، حين كانت الوحيدة فى بيت العائلة التى تشاهد برنامج فن الباليه، وستدور حول الجمهور بخطوات رشيقة وهى ممسكة بيدها ريشة بيضاء ، من أثر تحولها لبجعة ليلا، ولن تكون بجعة سوداء شريرة كما صورها الفيلم الاجنبى للبطلة المسكينة التى قتلت نفسها من شدة تقمصها، فهى لن تتقمص بطلة مأساوية أبدا حتى الموت، بل ستتقمص الفرح وستسير من جديد بعد تكسير النبوت، وجاءتها النصيحة من آخر

رجل اقترب منها، كان حريصًا وهو يلج مشاعرها أن يتأكد أنها لن تضمِّنه دفتر يومياتها، بل وزيادة تأكيد، نصحها أن تكف عن كتابة اليوميات، فهي تثبِّت الأشخاص، فلا يبرحونها.

تعاود "س" الرجوع إليهم ولا تملُّ من استدعائهم.

أخبرت الرجل الناصح لها:

– عندما تنصح أحدًا بالكف عن الكتابة عن شيء مؤلم، عليك أن تكون فعالاً حيال ذلك وتوجد له بديلاً مؤثرًا، وإن كان هناك من يفضل صفة عابر السبيل، عليك أن تدرك أن الكريم لا يستضيف إلا العابرين النبلاء، أما من يقتطعون من لحم صاحب الدار وهم راحلون فهم لا يعبرون أصلاً.

لا تحزن يا قارئي، فهى أحزن منك، لأن في المرة القادمة، عليَّها ألا تفتح الباب إلا عندما يطرقه الواقف، أما أن تفتح لمجرد نداء، فستحدث جريمة قتل لا تحتمل بشاعة مشاهدتها. تعتذر عن تلك الحالة التي انتابتك الآن ولا تندفع لمصالحتها كأنها مثيرة للشفقة، فهى في واقع الأمر ليست كذلك، أنها أقوى مِمَّا يتصور خيال شاعر أو روح عرَّاف، وبما أن حسابات الزمن أسفرت على أنه لا يظهر الحب إلا مرات قليلة في عمر البشرية، ستعيش بعبوره الطيفي، شاكرة لله أنها شربت عسل الجنة وهى على قيد

الحياة، تتصبَّر بالقليل مِمَّا ذاقته مع حبيب خفي، حتى تلتقيه، لن تطلب المزيد، ستدخره لموعد لا يمكن لبشر أن يحدده، بانتظار البشارة التي ستصلها قريبًا.

كان غرض الكلام هو الاعتذار عن اقتحامها لحياة من عرفتهم، فتحوَّل إلى كشف عن حقيقة الأمر، لأن الاعتذار هنا لا جدوى منه، لا أحد يقتحم روح أحد، إلا إذا وافق الآخر أن يفتح للدقات المتتالية على بابه. هي سره وهو سرها ولن يصل مخلوق إليهم، من داخل غرفة لم يأتِ الأطباء على ذكرها في أبحاثهم العلمية ذائعة الصيت، يختبئا هي وهو فيها، تلك الغرفة الموحشة في أحد أماكن المخ. الوحشة هي سمة من سمات الأسرار، تكون مرعبة مهما بدا السر لكاشفه تافهًا وعجيبًا.

نحن من نقدر قيمة ما تحويه أسرارنا.

تنظر "س" دائما عبر النوافذ التي يصادف وتطل رأسها منها سواء كانت نافذة ، الدور الحادي عشر بعملها أو نافذة الأتوبيس أو الميكروباص أو التاكسي ، أو نافذة بيتها ، كل النوافذ التي تعبرها بعينها إلى عالم أخر.

تنظر لتجد الماضي وترى أحلام الطفولة ، وما آلت إليها خطوات تنفيذها ، تطاردها ذكريات تتحرك معها أينما ذهبت ، لا مهرب منها ولا فكاك حتى وإن حاصرتها كل التغيرات الكونية في الأرض تقوم على عقلها كما يقوم ألم مؤذى على ضرس وحيد في فم خالي من الأسنان، تقوم تلك الذاكرة الزخمة بأفعال الصبيان والبنات أيام المدرسة في طريق العودة ، عندما كان يتجمع الشباب ما بين الوسيم والعادي والغنى أمام باب المدرسة الثانوية، حيث ينتظر الفتيان بشواربهم المخطوطة كوشم وقت خروج الفتيات، كانت تراقب فتى يقف بعيدا بانتظار فتاة مختلفة عن باقي الفتيات المتأنقات بالدلع واللاتي يسيرن بهز أرداف لم تنمو بعد، يتمنى أن تظهر له فتاة تشبه روحه وعندما ألتقى بها في أخر أيام الامتحانات عرف منها إنها كانت تخرج كل يوم وهى تحلم بأن تقابل شابا لا يريد فتاة تهز أردافها أثناء السير .

تعانقا فى زحام الصبيان والبنات رغم خجله ورقتها ، تعجب الجميع من جرأتهما تنتبه البنت للعالم من حولها فتنهره عنها وهو يلتهم شفتيها ، تطلب منه أن تعود للبيت فورا ، يطالبها بالانتظار ولكنها ترفض ، تسأله ماذا تريد بالتحديد ؟ لأنها تخاف الزحام وتخاف أن يراها أحد معه ، ينزع يده المختبئة بصدرها خلسة قبل أن يلاحظه أحد ..

وها هى تجدهم بعد سنوات أخرى ، حيث زحف الشيب على بعض الرؤوس وبدأت تظهر نهايات الحكايات ، لتجد نفس الفتى والفتاة وقد اصبحا رجلا وامرأة ، رأتهم "س" فى ميدان محتشد بجماعات مخيفة ، كانت تندس بينهم لتأتنس بغد أفضل تنتظره ، رأتهما يتوسطان الناس ، ويخلعان ملابسهما قطعة.. قطعة بهدوء دون زهو ولم يجرؤ احد على الاقتراب ، ينتهيا من الخلع يلاحظ المارة ذلك العرى المجنون ، يتوجه بانتصابه نحو الجميع يريد أن يريهم مدى رغبته فى الوصول لها وهى بضة كوردة تتفتح فى غصن برى على أحد شواطئ الآلام البعيدة عن العالم ، من حولهما يصرخ بأن يتوقفا عما يفعلان وأن يرتديا ملابسهما فورا حتى لا يذهبا للإبلاغ عنهما .

يمارسا الحب فى الشارع بعيونهما كعادتهما ، ولكن هذه المرة هناك قرارا داخله بالتوقف لأن أردافها تكورت وصارت تهتز وهى تسير بالشارع .

الفهـرس

صفحة رقم 5 من دفتر الذاكرة 1975-1985..... 11

الصفحة رقم 10 من دفتر الذاكرة 1985-1995..... 19

الصفحة رقم 30 من دفتر الذاكرة تابع 1985-1995..... 29

الصفحة المائة من دفتر الذاكرة 2000 – 2005..... 37

صفحة 344 من دفتر الذاكرة 1995-2000..... 41

الصفحة رقم 222 من دفتر الذاكرة..... 51

الصفحة 505 من دفتر الذاكرة 2005..... 59

الصفحة رقم 1110 من دفتر الذاكرة 2005 – 2015..... 65

الصفحة 801 من دفتر الذاكرة 1999- 2002..... 71

الصفحة 742 من دفتر الذاكرة 1996- 2007..... 77

الصفحة 745 من دفتر الذاكرة 2004..... 81

الصفحة 1200 من دفتر الذاكرة..... 91

الصفحة الأولى في دفتر جديد..... 97

الكاتبة في سطور

سهى زكي

- كاتبة

صدر لها الكتب الآتية:

- بوح الأرصفة (قصص)
- كان عندي طير (قصص) دار العلوم للنشر والتوزيع
- جروح الأصابع الطويلة (رواية) دار الدار للنشر والتوزيع
- فاطمة (رواية)
- رؤى الساحرة الشريرة (بورتريهات)
- وجع الأغاني (قصص) الهيئة العامة لقصور الثقافة
- تحت الطبع (رواية ابنة الله)
- من وحي السيدة س (نصوص)

للتواصل مع الكاتب

العنوان الالكتروني للمؤلف: Soha.zaky@gmail.com